المجتمع

فتيات تحت راية النبي صلى الله عليه وآله



تأليف
الأديب مصطفى المكبر

فتيات تحت راية النبي ﷺ

كل الحقوق محفوظة

المجتمع

الكويت ص.ب (٤٨٥٠) الصفاة - الرمز البريد (١٣٠٤٩)
الموقع الإلكتروني: www.mugtama.com
البريد الإلكتروني: info@mugtama.com
تليفون: ٢٢٥١٤١٨٠ ٩٦٥ + - ٢٢٥١٩٥٣٩ ٩٦٥+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة، أو أى وسيلة نشر أخرى، أو حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

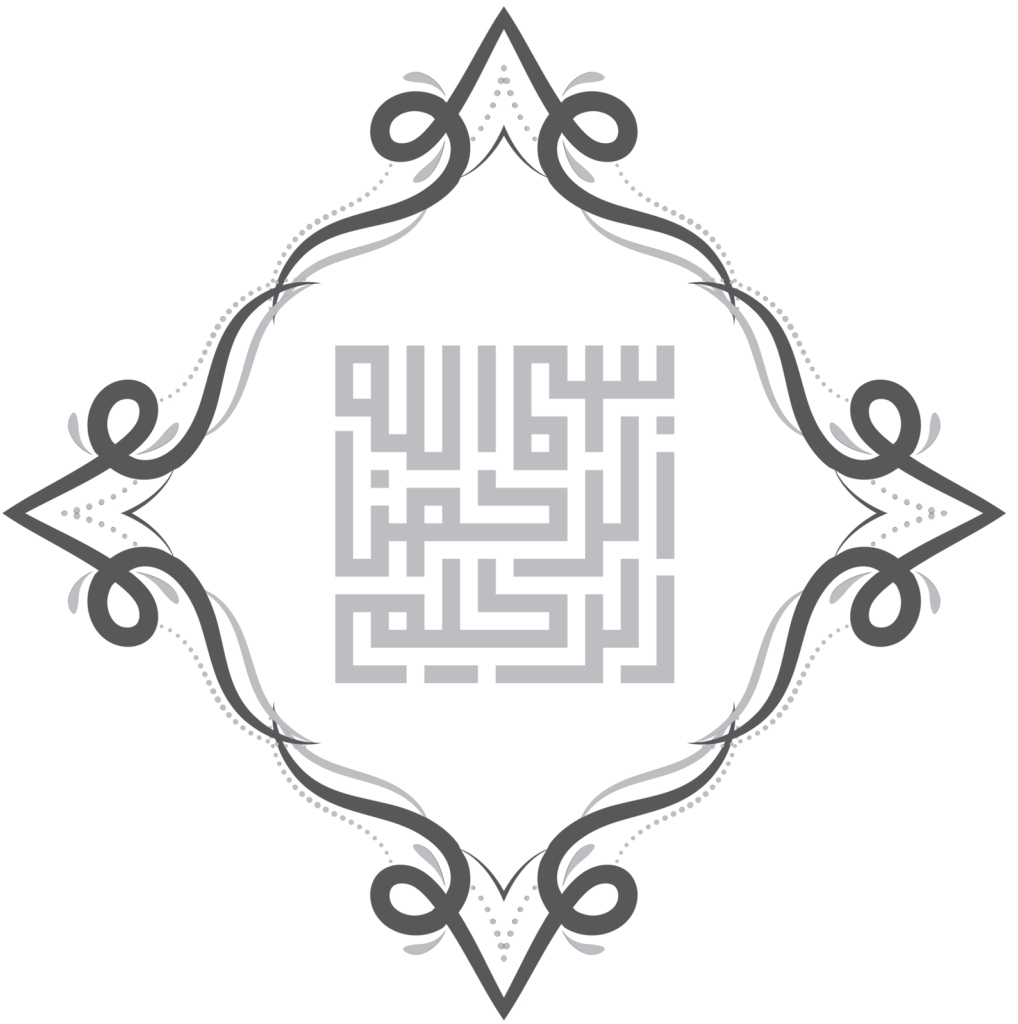
فتيات تحت راية النبي ﷺ

تأليف

الأديب مصطفى المكبر

١٤٤٦هـ/ ٢٠٢٥م

مجلة المجتمع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أحصى كل شيء عدداً، ورفع بعض خلقه فوق بعض، فكانوا طرائق قدداً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، ما أكرمه عبداً سيداً، وأعظمه حبيباً مؤيداً، وأكرمه أصحاباً وصحابيات كانوا نجوم الاهتداء، وأئمة الاقتداء، ﷺ صلاة خالدة، وسلاماً مؤبداً.. وبعد..

كما لمعت نجوم الصحابة حول النبي ﷺ، أسرجت شموس فتياتٍ صحابياتٍ تحت راية الهدى وسيد الخلق سيدنا محمد ﷺ، فكن هاديات مهتديات وخير قدوات لنساء الأمة وفتياتها الطاهرات العفيفات.

تقدم مجلة «المجتمع» في هذا الإصدار بعنوان «فتيات تحت راية النبي ﷺ» من تأليف الأديب مصطفى المكبر سِيَر مجموعة من فتيات الصحابيات الذين نهلوا من معين الإسلام وتربوا على نهج سيد الأنام.

مجلة «المجتمع»

دُرَّة وزينب بنتا أبي سلمة.. ربيبتا الرسول الكريم

دُرَّة، وزينب بنتا أبي سلمة بن عبدالأسد القرشي المخزومي، فتاتان شبَّتا في الكنف النبويّ الشريف، وأعظم به من كنف!

وكي نقف على خبريهما، لا بد من القول: إنه لما استشهد أبو سلمة، وتزوج النبي ﷺ من أم سلمة، فُـتِحَت لأبنائها صفحة جديدة وماجدة[١] بين صفحات التاريخ الإسلامي السَـنِـيَّــة[٢]، صفحة طالعتنا بقصة ربما[٣] هي أروع قصص الربائب، وأزواج الأمهات، رغماً عن ندرة فصولها وأحداثها التي خطَّها التاريخ وصورها، ورغمًا عن حديثها[٤] عنهم على استحياء، ولئن كانت أخبار دُرَّة أكثر استحياء، فإننا نستطيع أن نحدس، بل ونقرر في ثقة أنها شبت وقلَّما تُضارع من مثيلاتها.

إنها ابنة أبي سلمة ابن عمة النبي ﷺ الذي سبق إلى الإسلام بحس راق، وفطرة سوية يهديانه إلى الطريق الأصوب، إذا تعددت أمامه الطرق البديلة.

إنها ابنة أم سلمة، أم المؤمنين التي صفَّت قدميها أمام ناظري التاريخ بين أعظم نسائه عن جدارة واستحقاق، السيدة الحصان الرزان[٥] الجميلة، ولا ريب أنه كان لدرة من شمائلها نصيب موفور.

---

(١) ذات مجد.

(٢) العظيمة.

(٣) شب أبناء السيدة خديجة في الكنف النبوي الشريف قبل أبناء السيدة أم سلمة.

(٤) عن الفتاتين درة، وزينب، وأخويهما سلمة، وعمر.

(٥) الوقورة العفيفة الثابتة على الخلق والمبادئ.

إنها ربيبة النبي ﷺ التي شبت مغبوطة في كنفه الشريف، وأعظم به من كنف! أجل شبت درة بنت أبي سلمة وقلما تُـضَارع[١] من مثيلاتها، وربما مثَّـل هذا المعنى الخلفيَّـة القويَّـة لحديث أم حبيبة مع النبي ﷺ بشأنها، قالت أم حبيبة رضي الله عنها للنبي ﷺ: هل لك في دُرَّة بنت أبي سفيان؟ فقال ﷺ: «فأفعل ماذا؟»، قالت: تزوجها، قال ﷺ: «أتحبين ذلك؟»، فقالت: لست بمخليَّـة لك، وأحبُّ مـن شَرَكَني فـيك أختي، فقال: «فإنها لا تحلّ لي»، قالت: فإنه بلغني أنك تخطب بنت أبي سلمة، فقال ﷺ: «فليست تحلّ لي، إنها ربيبتي في حجري، وإني وأباها أرضعتنا ثويبة، فلا تعرضن عليَّ بناتكن ولا أخواتكن».

وفي رواية قالت أم حبيبة: إنَّا قد تحدثنا أنك ناكح دُرَّة بنت أبي سلمة، فقال ﷺ: «إنها لو لم تكن ربيبتي في حجري ما حلّت لي لأنها ابنة أخي من الرضاعة»[٢].

وكانت زينب بنت أبي سلمة أصغر من أختها دُرَّة، بل كانت أصغر أبناء أم سلمة، فقد تزوجها ﷺ وزينب ما زالت تلقم ثدي أمها، قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه: لما انقضت عدَّة أم سلمة خطبها أبو بكر فردته، ثم عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ، فقالت: مرحبًا، أخبر رسول الله أنِّي غَيْرَى، وأنَّي مصبية، وليس أحد من أوليائي حاضرًا، فبعث إليها النبي ﷺ: «أمّا قولكِ: إنَّي مُصْبِـيَـة، فإن الله سيكفيك صبيانك، وأمَّا قولكِ: إنَّي غَيْرَى، فأدعو الله

(١) قلما تشبهها مثيلاتها.

(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٤٨٣١).

أن يذهب غيرتك، وأمَّا الأولياء فليس أحد منهم إلا سيرضى بي»، فقالت: يا عمر، قم فزوّج رسول الله[١].

فقال ﷺ: «أما إني لا أَنْـقُصَكِ مما أعطيت فلانة، رحيين، وجرتين، ووسادة من أدم حشوها ليف»، وكان رسول الله ﷺ يأتيها، فإذا جاء أخذت زينب فوضعتها في حجرها لترضعها، وكان رسول الله ﷺ حيياً كريماً يستحيي فيرجع، فعل ذلك مرارًا ففطن عمار بن ياسر لما تصنع، فأقبل ﷺ ذات يوم، وجاء عمار وكان أخاها لأمها[٢] فدخل عليها فانتشطها[٣] من حجرها وقال: دعي هذه المقبوحة المشقوحة[٤] التي آذت رسول الله، فدخل النبي ﷺ فجعل يُـقَـلِّب بصره في البيت ويقول: «أين ذُنَاب؟ ما فعلت ذُنَاب؟»، قالت ﵂: جاء عمار فذهب بها، فبنى رسول الله ﷺ بأهله[٥].

وكان ﷺ ودودًا مع ربائبه؛ سلمة، وعمر، ودُرَّة، وزينب، ينتظمهم بحنانه ككل من حوله، ويستغرقهم ويمس قلوبهم بوده الصافي، وشبوا في كفالته الشريفة، لا سيما زينب أصغر أولاد أم سلمة، وكان اسمها بُـرَّة فقال ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البرِّ منكم»، قالوا: ما نسميها؟ قال ﷺ: «سموها

---

(١) قيل: إن الذي زوَّج النبي من أم سلمة هو ابنها سلمة وليس عمر، وهو الأرجح لأنه الأكبر.

(٢) ربما كان عمار أخاها من الرضاع، فقد كان أبوه ياسر حليفًا لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي عم أم سلمة، وكانت سمية أم عمار إحدى إماء أبي حذيفة وزوجها من حليفة ياسر بن عامر، ويجوز أن تكون أم سلمة رضعت من سمية أم عمار ﵂ جمعياً.

(٣) أخرجها وأخذها.

(٤) المقبوحة بمعنى المشقوحة؛ لأن القباحة هي الشقاحة، وقيل الشقح: يعني البعد.

(٥) أخرجه ابن سعد (٨/ ٩٠)، وأحمد (٦/ ٣١٣)، وصححه ابن حبان (١٢٨٢)، والحاكم (٤/ ١٧)، ووافقه الذهبي، وقال ابن حجر في الإصابة (١٢٠٦٥) إسناده صحيح.

زينب»[١]، وكان يحبها ويداعبها، وإذا دخل على أم سلمة يقول: «أين ذُناب؟».

ورغم صغر سنها، فإنها كانت تبادله ﷺ مداعبة بمداعبة وهي تتواثب في نشطة ومراح، حتى إنها عمدت أن تدخل عليه وهو يغتسل، فَنَضَحَ ﷺ في وجهها الماء، قائلاً: «ارجعي»[٢]، فما زال وجهها نضرًا شابًا حتى أسنَّت، وما نقص من بهائه شيئًا من بركة الماء الذي نضحه ﷺ عليه، فكانت منقبة عظيمة، ومكرمة خَلَدَت، ولازمتها ما حيت، ولا ريب أن تشبَّ زينب مبتهجة مغبوطة، فقد عاشت في الكنف النبويّ الشريف ما شاء الله لها أن تعيش، وارتوت من الحنان والودِّ الشريفين.

وصعد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وما زالت زينب تدرج في السابعة من عمرها على التقريب، وكانت من الذكاء والوعي بحيث تدرك ما يدور حولها على وجهه الأكمل والأصوب، وضجَّت الدنيا من حولها صخبًا وحزنًا وكدرًا، وكأن الحدث قد أنضج فكرها، وأحكم رؤاها، فعاشت تُعْجِزُها كلمات الثناء عليه ﷺ، وانطلقت على صراطه المستقيم، تهتدي بِهَدْيِهِ، وتتفقه في دين الله عز وجل، فضلًا عما أخذته عنه مباشرة من أدب النبوة وفقهها وهي في حجره الشريف، ويسر لها المُضيّ على طريق طلب العلم والتفقه دخولها على أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لا سيما عائشة متى شاءت، وأنَّى شاءت، التي كانت أعلم نساء الأرض.

---

(١) حديث صحيح، أخرجه مسلم (٢١٤١)، والزَيْنَبُ: نبات عشبيّ معمِّر من فصيلة النَّرجسيَّات، يُستخرج من أزهاره عطر ثمين فاخر.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٨٢).

لنطالع قول الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علمها أفضل، وقول أبي موسى الأشعري، وكان من أكابر الصحابة: ما أُشْكِل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة إلَّا وجدنا عندها منه علمًا[١].

وعن ابن أختها عروة بن الزبير أنه قال: ما رأيت أحدًا أعلم بفقهٍ، ولا بطبٍ، ولا بشعرٍ من عائشة رضي الله عنها.

كذلك أمها أم سلمة التي كانت مكانتها تدنو من مكانة السيدة عائشة، وتكاد تُسامِيها[٢] في قلب النبي ﷺ وعالمه، ولا ريب أنها جمعت من العلم الشرعي قدرًا موفورًا، ولما فطنت إلى ولع ابنتها بطلبه وتحصيله، كانت تُسدي إليها منه كلما وجدت إلى ذلك سبيلًا، وفي هذا المعنى قالت زينب كمضرب للمثل: حدثتني أمي أن النبي ﷺ كان يُقَبِّلها وهو صائم، وكنت أغتسل[٣] أنا والنبي ﷺ من إناء واحد من الجنابة[٤].

وهكذا صُنِعَت زينب على عين النبي ﷺ، ثم على عين نسائه من بعده، وبين رغبتها المسيطرة في طلب العلم، وقُرْبِها من أعظم مصادره شبَّت عالمة فقيهة، وما أن أدركت رضي الله عنها طور النساء حتى باتت المرأة العالمة، والجميلة، فأمَّا علمها فيوفي البرهان عليه ما سقناه على السطور السالفة، ونستدعي قول ابن عبدالبر فيها: كانت زينب بنت أبي سلمة من أفقه نساء زمانها، وقول أبي رافع

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٨٣).
(٢) تساويها.
(٣) الكلام لأم سلمة رضي الله عنها.
(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري (٣٢٢)، ومسلم (٢٩٦).

الصائغ: كنت إذا ذكرت امرأة فقيهة بالمدينة، ذكرت زينب بنت أبي سلمة.

وأمَّا عن جمالها، فيصحُّ لنا أن نستعير قول أبي عمر تعليقًا على نضح النبي ﷺ الماء في وجهها: فلم يزل ماءُ الشبابِ في وجهها حتى كبرت وعَمَّرَت، وقول ابن الأثير: قال عطاف: قالت أمي: ورأيت زينب وهي عجوز كبيرة ما نقص من وجهها شيء[1].

وكان الصحابي الجليل عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب ابن خالة زينب، وانتفض سابقًا إليها أقرانه ونظائره طالبًا الود واليد، وكان عبدالله حسيبًا نسيبًا من بيت يقبع على قمم العز والشرف، لولا لهاث جَدِّهِ وأبيهِ خلف سلطان الهوى، وذرائع الشيطان فجدّه الأسود بن المطلب كان من المستهزئين، الذين قال عز وجل فيهم: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحِجر: ٩٤-٩٥]، قال ابن إسحاق: كان عظماء المستهزئين خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم؛ من بني أسد بن عبدالعُزَّى: أبو زمعة الأسود بن المطلب، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه، فقال ﷺ: «اللهم اعم بصره، وأثكله ولده»، ومن بني زهرة الأسود بن يغوث)، ومن بني مخزوم: الوليد بن المغيرة، ومن بني سهم: العاص بن وائل، ومن خزاعة: الحارث بن الطلاطلة، فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء، أنزل الله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحِجر: ٩٤-٩٦]، وثكل الأسود

(١) من جمالها وبهائها.

ولده زمعة (أبو عبدالله) قُـتِلَ يوم «بدر» كافرًا، وأعمى الله الأسود.

وأمَّا أُم عبدالله بن زمعة فهي قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي أخت أم سلمة أم المؤمنين وخالة زينب، وكان جدُّه وجدُّ زينب لأميهما أبو أمية بن المغيرة يُحلِّق في سماء الفضائل ويعرف بزاد الركب، لأن كرمه المفيض مع ثرائه العريض كانا يدفعانه لكفاية كل ركب يسافر معه من الزاد، حتى شرَّق خبره وغرَّب، وتسامعت به العرب القاصية والدانية.

وجدَّة عبدالله وزينب لأميهما هي عاتكة بنت عامر بن ربيعة الكنانية من بني فراس الأمجاد، وكان جدُّها يُلَقَّب بـ«جذل الطعان».

وأسلم عبدالله بن زمعة صغيرًا، ولم تشر المصادر إلى سنِّه لما أسلم، وكل ما قيل في هذا الشأن أنه لما هاجر النبي ﷺ كان له من العمر سنوات خمس، وكان مؤهلاً لأخذ مكانه في مصاف كبار الصحابة لولا صغر سنّه، وشبَّ ﷺ كأولئك الرجال الذين تُـمَكِّنهم قدراتهم الفذة، وطبائعهم الفريدة إلى ممارسة دور مهم أينما كانوا، فكان معدودًا من أشراف قريش، وكان يأذن على النبي ﷺ، وفي مرضه قال لعمر بن الخطاب: صلِّ بالناس، لما لم يحضر أبو بكر[1].

وفي أحداث الفتنة التي قتل فيها عثمان بن عفان انحاز عبدالله إلى الحق، فكان في جانب عثمان ﷺ، ويوم الدار قُتِل ربُّ هذه التطوافة عبدالله بن زمعة شهيدًا مع الخليفة الحيي الكريم في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين

(١) صحيح، أخرجه البخاري (٤٦٥٨)، ومسلم (٢٨٥٥).

من الهجرة، في ذاك اليوم المشهود الذي خَلَّفَ في قلب المدينة لوعة، وفي حلوق المؤمنين غصصًا، وألمَّ بزينب مصيبة موجعة، ولكنها جابهتها بالصبر الجميل، ذلكم الصبر الذي عاد يخلع عليها عباءته يوم الحَرَّةِ الأليم[١]، يوم أن حُمِّلَ إليها ابناها قتيلين، فجعلت تنقل بصرها بينهما وتردد: إنَّا لله وإنَّـا إليه راجعون، والله إن المصيبة فيهما عليَّ لكبيرة.. وأشارت إلى أحدهما قائلة: وهي عليَّ في هذا، وأضافت وهي تنظر إلى الآخر: أكبر منها في هذا؛ لأنه جلس في بيته فَـدُخِل عليه فَـقُـتِلَ مظلومًـا، وعادت ببصرها للأول مستأنفة: وأما هذا فإنه بسط يده وقاتل فلا أدري علامَ هو[٢] في ذلك؟

وكانت زينب رضي الله عنها راوية للحديث الشريف، حفظت عن النبي ﷺ وروت عنه وعن أزواجه: أمها أم سلمة، وعائشة، وأم حبيبة، وغيرهن، وروى عنها ابنها أبو عبيدة، وعروة بن الزبير، وزين العابدين على بن الحسين وآخرون، وخرَّج لها الإمام البخاري حديثًا، وخرج لها الإمام مسلم حديثًـا آخر.

وبعد وقعة الحَرَّة الأليمة بنحو عشر سنوات، وفي أيام عبدالملك بن مروان في العام الثالث والسبعين، كانت السيدة زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها قد تشوَّفت[٣]، وتشوَّقت إلى النبي ﷺ وأزواجه رضي الله عنهن وزوجها وولديها، لتحيا

(١) الحَرَّةُ: مكان بظاهر المدينة وقعت به معركة الحَرَّةِ أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣هـ، واستبيحت المدينة النبوية ثلاثة أيام، وارتوت أرضها بدماء الصحابة وأبنائهم لما أكثر جند الشام فيها القتل والسرقة بقيادة مسلم بن عقبة الذي لقب بعد هذه الوقعة بـ«مسرف بن عقبة» لإسرافه يومذاك في استباحة مدينة الرسول ﷺ وقتل أهلها.

(٢) إنها ترجو للأول الجنة لأنه لم يقاتل، وقُتِلَ في داره ومظلومًا، أما الثاني فلا تدري هل كان على الحق أم على الباطل لأنه قاتل وكان القتال بين طائفتين من المسلمين.

(٣) تشوَّفت وتشوَّقت بمعنى واحد: اشتاقت.

معهم في حياة أخرى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فصعدت إلى هناك يحدوها شوقها[١].



(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤١٣)، طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩/ ٥٦)، البداية والنهاية (٨/ ٣٤٧)، أنساب الأشراف (١/ ٢٠٧)، الاستيعاب (٣٤٠٧)، أعلام النساء (٢/ ٦٧)، الإصابة (٤٧٠٢) (١١٢٤١)، أسد الغابة (٢٩٥١) (٦٩٦٦)، سير أإعلام النبلاء (٣/ ٢٠٠).

مُعَاذَةُ بنت عبدالله.. ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء

نزلت فيها: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النُّور:٣٣].

يجوب التاريخ الدنيا، يتأمل المشاهد والأحداث، وإذا جَسُمَ[١] المشهد أو عَظُمَ الحدث وقف التاريخ وأجرى قلمه عليه، وحسب جسامة المشهد تطول وقفة التاريخ أو تَقْصُر، وعلى قدر عظمة الحدث تُبْطِيء حركة قلم التاريخ أو تُسْرِع، وكانت مُعَاذَة بنت عبدالله جارية عند عبدالله بن أُبَيّ بن سلول؛ لذا لم يأبه التاريخ لها، ولم يَعْنِ[٢] بها، ولم يَخْطُر[٣] عنده شأنها، ونحن لا نقدح في نزاهة التاريخ، ولا نعيب في شرف غايته، ولا نختلف معه، أو نردُّ عليه رأيه، ولكنها طبيعة كوائن الدنيا، وقوانين الحياة.

وكانت وقفة التاريخ مع مشاهد حياة معاذة بنت عبدالله قصيرة، وحركة قلمه على أحداثها سريعة، فسطَّر عنها سراعاً في وقفات قصيرة، يقول: نزل قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النُّور:٣٣] في معاذة جارية عبدالله بن أُبَيّ بن سلول، وكان يُكْرهها على البغاء، وكانت مسلمة فاضلة فأنزل الله فيها هذه الآية، ثمَّ إنها عُتِقَتْ وبايعت النبي ﷺ بيعة النساء، فتزوجها بعد ذلك سهل بن قَرَظَة، فولدت له عبدالله بن سهل، وأم سعيد بنت سهل، ثم هلك عنها أو فارقها، فتزوجها الحُمَيِّر بن عَدِيّ، فولدت

(١) عَظُمَ وكان مهماً.
(٢) لم يُظهر لها اهتماماً.
(٣) لم يكبر ويَعْظُم.

له توأمين الحارث، وعديًّا ابني الحمير، ثم فارقها فتزوجها عامر بن عَدِيّ، فولدت له أم حبيب بنت عامر.

وقيل في نسبها: معاذة بنت عبدالله بن حبر بن الضُّرير بن أميَّة بن خُدَارة بن الحارث بن الخزرج، فيشي نسبها بأن الأنصار كان يَسْبي بعضهم بعضاً في الجاهلية؛ لأن معاذة كانت من بني الحارث بن الخزرج، وعبدالله بن أُبَي بن سلول كان من بني عوف بن الخزرج، فكلهم خزرجيون، ورغماً عن ذلك كانت معاذة أمة لعبدالله بن أُبي، فكانت معاذة إذاً حُرَّة من بيت كريم، وكان للسَّبيّ عليها ذنب وتجنٍّ، وقيل: كان اسمها مُسَيكة[1]؛ حيث ورد في تفسير ابن كثير للآية قول الأعمش: «نزلت في أمة لعبدالله بن أُبي يُقال لها مُسَيكة».

إن شأن المرأة يُثْقِل القلب بهمِّها، بيد أنها صبرت على ابن أُبَيّ الذى خَسَّ وحَقُر، ولما ألفته لا يرعوي حملت شكواها وخرجت إلى الطريق تنهبه بخطواتها السريعة نهباً، ولو سألناها: إلى أين يا مُعاذة؟ لأجابت بنفس تئن وتتوجع: إلى الملجأ والملاذ، إلى النبي ﷺ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية: «إن رجلاً من قريش أُسِر يوم «بدر»، وكان عند عبدالله بن أُبيّ أسيراً، وكانت لعبدالله بن أُبيّ جارية يُقال لها معاذة، وكان القرشي الأسير يريدها عن نفسها، وكانت مسلمة، وكانت تمتنع لإسلامها، وكان عبدالله بن أُبيّ يُكرهها على ذلك، ويضربها رجاء أن تحمل من القرشي فيطلب فداء ولده، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النُّور: ٣٣].

(١) وقيل: كان هذا الأمر قد وقع لجاريتين من جواري عبدالله بن سلول.

فأقبلت الجارية إلى أبي بكر ﷺ، فشكت إليه ذلك، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ، فأمره بقبضها[١]، فصاح ابن أُبي: من يعذرنا من محمد، يغلبنا على مملوكتنا[٢].

عرضنا بعض وقفات التاريخ القليلة مع مشاهد من حياة معاذة بنت عبدالله ﷺ، ولئن كنا لا نفرق بين حُرَّة وأَمة، وما يُعنينا من الشخصية أنها صحابية جليلة لها مشهد أو يزيد تتسلط علينا عظمته، ويجذبنا إليه جماله فلا نملك إلا الوقوف عنده، والطواف بخواطرنا حوله، فإن لمعاذة كل الحق في الوقوف عندها، فلنقف معها قليلاً.

كان ظلام الشرك يقبع بطبقاته الثخينة في آفاق يثرب، ويشيع في كل شيء فيها حتى نفوس ساكنيها، وكانت معاذة بنت عبدالله مدفوعة بظلام الشرك تتلمس جانب مرضاة سيدها عبدالله بن أُبي مهما عَظُمت تبعات هذا الأمر، ولما انصدع نور الإسلام في آفاق يثرب وراح يُبدد ظلام الشرك فيها شيئاً فشيئاً، لامس هذا النور قلب معاذة بنت عبدالله فوقفت تفكر، ولكن وقفتها لم تَطُل حيث أسلمت وبايعت، وترامى النور في نفسها، وانفعل به فؤادها، وخلع عليها أثره من الطهر والنقاء، واستقر في نواياها ألَّا تترك أمراً يتهدد ما أفاء به الإسلام عليها أو يُفسده.

ولما أمرها ابن أُبيّ بممارسة البغاء رفضت أشد الرفض، وأبت أعظم الإباء، فثارت في داره ونفسه قضية كبرى شعر بها تُطَامِن[٣] من كبريائه،

(١) يجعلها عنده.
(٢) راجع تفسير ابن كثير للآية (٣٣) من سورة «النور».
(٣) تُغطي وتُـقَلِل.

وتخافت من سيادته الزائفة، فضجَّ وجلب، وهاج وضرب.

كانت معاذة تريد الله عز وجل بعملها، فتبدت قوة إيمانها كصخرة يناطحها ابن أُبيّ وتناطحه، وتُنْزِل بوساوس نفاقه وتمرده ضربة ما أقساها! وكان غضب ابن أُبيّ بالغ الرهبة حتى ليخيل إليه أن يُجهِز عليها فلا يبقى لها بعد ذلك وجود، فأحست معاذة ما ملأ قلبها رهبة على دينها، فحملت شكواها إلى أبي بكر، فحملها رضي الله عنه بدوره إلى النبي ﷺ فأمره بضمها إليه.

وليلوي ابن أُبي أعنة حقده وشروره إلى حيث يشاء أو يضرب بها في الأرض العريضة، فما كانت طبيعته ﷺ لتجعله يترك أمراً يتهدد رسالته وصحابته بالخطر دون أن يسعى لمواجهته سعياً جاداً وسريعاً.

وهل نسي التاريخ السبب الرئيس لغزو النبي ﷺ ليهود بني قينقاع؟! لا لم ينس التاريخ أبداً، ولكننا نحن الذين تختلف ذواكرنا[1] عن ذاكرته.

يقول المباركفوري في «الرحيق المختوم»: فلما فتح الله للمسلمين في «بدر»، اشتد طغيانهم[2]، وتوسعوا في تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون كل من ورد سوقهم من المسلمين، حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم، وعندما تفاقم أمرهم، واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم من مغبة البغي والعدوان، ولكنهم ازدادوا في شرهم وغطرستهم.

---

(١) جمع ذاكرة.

(٢) يقصد اليهود.

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم «بدر»، وقدم المدينة جمع من اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً»(١).

قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس وإنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢ قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾ [آل عِمْرَان: ١٢-١٣](٢).

كان الإعلان السافر عن الحرب في معنى ما أجاب به بنو قينقاع، ولكن النبي ﷺ كظم غيظه، وصبر المسلمون وطفقوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالي والأيام، وازداد بنو قينقاع جرأة، فقلما لبثوا أن أثاروا في المدينة قلقاً واضطراباً، وسدوا عن أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن ابن عون: أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته في سوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها -وهي غافلة- فلمَّا قامت انكشفت سوأتها فضحكوا فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ -وكان يهودياً- فقتله، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه،

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي (١٩١٠٠)، وقال الألباني في ضعيف أبي داود إسناده ضعيف.
(٢) سنن أبي داود مع عون المعبود (٣/ ١١٥)، وابن هشام (١/ ٥٥٢) عن الرحيق المختوم.

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع، وحينئذ عِيلَ[١] صبر رسول الله ﷺ، وسار بجنود الله إلى بني قينقاع، ولمَّا رأوه تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ.

ودام الحصار خمس عشرة ليلة، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا، وحينئذ قام عبدالله بن أُبيّ بن سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، وتأمل رسول الله ﷺ هذا المنافق الذي لم يكن قد مضى على إظهار إسلامه إلَّا نحو شهر واحد فحسب، عامله بالحسنى فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام، وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم[٢].

أطلت الوقفة عامداً مع السبب الرئيس لحرب بني قينقاع، ربما دفعنا هذا السبب إلى تغيير وجهة فكرنا في حقبتنا الراهنة.

أجل، سقت خبر بني قينقاع من بواكيره لندقق فيه وندرك أن النبي ﷺ دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وحذرهم فتطاولوا، فغضَّ ﷺ الطرف عن ذلك كله، ولكنه لم يكن ليمرر أمر كشف عورة امرأة مسلمة مهما كانت العواقب، وإذا تبدى لنا السبب الرئيس لغزو بني قينقاع في كشف عورة امرأة مسلمة، فهل يجد ﷺ في نفسه ما يتأدى به إلى غضِّ الطرف عن قضية معاذة بنت

(١) نفد وغُلب.

(٢) راجع غزوة بني قينقاع في سيرة ابن هشام.

عبدالله التي لاذت به، ولجأت إليه ليحفظ عليها طهرها من عهر ابن أُبيّ؟! وأطلق ابن أُبيّ صيحة نفاقه: من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا؟!

صيحة لا ينكشف ضميرها إلَّا عن موجات من الانتهازية ما ترتد إلَّا وتشتد في نفس ابن أُبيّ، وأنهى إلينا التاريخ خبر عتق معاذة بنت عبدالله وبخل علينا ببيان سبب عتقها، وإن كانت الأحداث تجعلنا نحدس بأن المحرر الأول ﷺ سعى في أمر عتقها، وأوعز بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه الذي كان يبذل ماله في شراء المسلمين المستضعفين من ساداتهم منذ الأيام البواكير للدعوة، ويجد راحته في هذا البذل الميمون.

ولمَّا أدرك رأس المنافقين ابن أُبيّ أن الوقت يمضي ضد عُهْرِه وفي صالح طهر معاذة دفعته الضرورة الملجئة إلى بيعها، لتتحرر معاذة من قيود الرق الثقال التي تحاصرها أينما تلفتت، ومن أثر شذا الحرية الذي راح يُلاطف نفسها، ويُربِّت على فؤادِها ويحمل عنه عبء الألم النفسي الذي ظل يرزح تحته سنوات طوال، لتمضي على سلم الصعود، وتذر في ذاكرة التاريخ رسالة طهر ونقاء تنشر الشذا وتشيع العبير.

ويبقى المنافقون في كل الأزمنة والأمكنة ينظرون بعيون السفه إلى نظام الإسلام الشامل لكل مناحي الحياة، ويرون أنه يُبيِّـت لهم أسباب الإقلاق والترويع[1].

(١) السيرة النبويَّة لابن هشام (١/ ٥٥٢)، أسد الغابة (٧٢٩١).

أم كلثوم بنت عقبة.. المؤمنة المهاجرة المتَحَنة

في أرجاء مكة، ترددت أصداء دعوة محمد ﷺ، وانتفض أصحاب الفِطَر السويَّـة المستكنَّة بين الجوانح يُسلمون قيادهم لله عز وجل، ويبايعون محمداً ﷺ، وبادرت أم كلثوم بنت عقبة تُـسلم لله عزَّ وجلَّ.

وكرَّت الأيام بحلوها النادر ومرَّها الكاثر، وهاجر الصحب الكرام وتبعهم النبي ﷺ إلى المدينة مخلِّفين وراءهم الأموال والديار، وسفه قريش وخرق ساداتها، وبعض المسلمين الذين حال بين كل منهم والهجرة حائل لا سلطان له عليه، ومانع عجز عن تخطِّـيه.

وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط واحدة ممن تخلفوا عن الهجرة رغم رغبتها الجياشة، وميلها الذي يجنح بنفسها كلها إلى هناك، حيث منعها أبوها عقبة بن أبي معيط، وأخواها الوليد، وعمارة، ابنا عقبة، وكي يكتمل بيان شخصية أم كلثوم، وقدر بذلها (النفسي قبل المادي) من أجل استقرارها تحت راية النبي ﷺ في المدينة، لا بد من التعرض سريعاً لخبر أبيها مع النبي ﷺ.

فذات يوم، خرج النبي ﷺ إلى الكعبة وقد اهتزت أشواقه إليها، وكان بعض سادة قريش جلوساً بجوارها، ووقف ﷺ بين يدي ربه مشتركاً معهم في المكان مفارقاً لهم في العقيدة، ليس لتربصهم به سلطاناً على أمنه الغلاب ولا لغائلتهم[1] حسباناً في نفسه، وهكذا وجد المشركون أنفسهم يخسرون هيبتهم

(١) الخيانة المهلكة.

أمام رجل وحيد أعزل يمارس في هدوء وكرامة حق عبادته لرب يرفضونه في تعنت وعناد، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا[١] جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه على كتفي محمد إذا سجد؟

وتلقف أشقى الناس عقبة بن أبي معيط الرغبة الشيطانية في مباهاة، وفاجأ النبي ﷺ وهو ساجد بوضع سلا الجذور فوق كتفيه.

صورة تبعث الأسى في النفوس، وتُطلق عبث الألم في الأفئدة، صورة تُفزِع وستبقى تنبعث من أعماق النفس إلى الذهن من حين إلى حين.

وصاح صائح: يا فاطمة، أدركي أباكِ.

كانت فاطمة بنت النبي ﷺ ما زالت تدرج في العقد الأول من عمرها أو ودعته بقليل، واتسعت خطواتها تنهب الطريق إلى الكعبة نهباً سريعاً، وتطوف برأسها دوامة من الخواطر المفزعة، وأرمض[٢] قلبها ما نزل بأبيها وأدمته صورته وسلا الجزور فوق كتفيه وهو ساجد لا يريم[٣]، وذووا الطيش والنزق الذين ذهبوا بعزة قريش وشرفها من حوله يضجون بالضحك، ويتمايلون على بعضهم بعضاً.

وسابقت فاطمة رضي الله عنها الريح لترفع سلا الجزور من فوق كتفي أبيها، ثم استقبلت القوم تدعو عليهم وتسبّهم، وطمح قلبه الشريف ﷺ إلى شيء لم يكن ليطمح إليه لولا أنه كثيراً ما التمس هداهم وما وجد إلى ذلك سبيلاً،

(١) أحشاء الحيوان؛ اللفافة التي يكون فيها الجنين في بطن الحيوان، والجزور: البعير.
(٢) أوجعه من شدة الحزن.
(٣) لا يتحرك.

طمح أن يقتص الله منهم، فرفع يده الشريفة قائلاً: «اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط»[١].

أمَّا هم فقد كانوا لا يزالون يضحكون، مجموعة من السادة من ذوي القوة والسيادة تفعل ذلك برجل وحيد أعزل يسجد لربه، إن السيد الحق هو الذي يمتاز بالإحسان إلى غيره حتى لو تمايز معه في الرأي والهدف، واختلف وإياه في العبادة والعقيدة، وإن السيادة الحقة تكسر على السيد سفاهته في عنفٍ ولومٍ، وتصدّه عن السفه أو تصدّ السفه عنه، وهيا نُسْرِع مع الأيام، ونمضى خلف الدعوة الشريفة.

هيا أيتها الأيام أسرعي في دورتك، وضعي الفريقين وجهاً لوجه على ساحة «بدر».

وكانت الدعوة الشريفة قد ضربت في الأرض العريضة، وطال انتظارها لسادة قريش هناك فوق أديم «بدر»، متحرقة شوقاً إلى أن توجد القدرة الإلهية لها سبيلاً إلى التنفيذ، وفي ليلة بدر كان ﷺ واثقاً تمام الثقة من إجابة دعوته، وهلاك صناديد قريش الذين سمَّاهم، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد مُضيّ سنين في إثر سنين على حرب «بدر»: إن رسول الله كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس[٢]، يقول: «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله»، فوالذي بعثه بالحق ما

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١/ ٦٩)، ومسلم (١٧٩٤).
(٢) في الليلة التي كان صباحها معركة «بدر».

أخطؤوا الحدود التي حدَّ رسول الله ﷺ[١].

وقُـتِلَ أبو جهل، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبه، وابنه الوليد، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط[٢].

وما يُعنينا هنا هو بيان قتل عقبة بن أبي معيط أبي أم كلثوم بنت عقبة ربة[٣] هذه الدراسة السريعة في «بدر»، وأنف قتل أبيها راغم تاقت نفسها للهجرة إلى المدينة، وكانت واحدة ممن تخلفوا عنها، حيث منعها أبوها وأخواها الوليد، وعمارة، ولم تعد نفس أم كلثوم تأنس إلى سمر أترابها ولغو لداتها[٤]، وتجاوب قلبها خفاقاً مع صدى نفسها، فهجرها الإشراق مع المهاجرين إلى يثرب، وتجلَّلت بالخواء والكآبة الخرساء، جو يفعم نفسها بملالة، واستيحاش يطعنها ولا يميتها ليجثم على فؤادها شعور بالتيه، لكأنها ماضية بين أحداث حلم طويل تتباين صوره ومشاهده، وفي كثير من الأحايين يتراءى لها بين أحداث الحلم من المرائي ما تهفو إليه نفسها وتتوق فترفع بصرها مستشرفة لحظات حلمها بالمدينة، وتجلس إلى النبي ﷺ تعتصر كل فرحة الأيام في هذه الجلسة الشريفة، وهي تقصُّ عليه ﷺ خبرها، ثم تجتذب أذنيها كلماتُه الشريفة على تشوق وانتظار.

وطفقت أم كلثوم تتربص بفرصة النجاة من إسار[٥] أخويها، وأخيراً

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٨٧٣)، وأحمد (٢١٩).
(٢) راجع: أعظم دلائل صدق النبوة (معجزة الدعوة القاتلة) للمؤلف، ط دار التوفيقية للتراث بالقاهرة.
(٣) صاحبة.
(٤) الأتراب واللدَّات هم المماثلون في السن، جمع ترب، ولدَّة.
(٥) الأسر، والحبل الذي يُـقيد به الأسير.

لاحت لها الفرصة، فدنت منها ثم أجادت استغلالها، وما نستشرف ذلك اليوم الذي خرجت فيه من وراء أعين قريش لتركب وحيدة هذا الطريق المرهوب الواصل بين مكة والمدينة إلَّا ونتمثل علو همتها، وصلابة عزمها، وإدراكها لبواعث وثمار المغامرة.

المغامرة؟! أجل مغامرة بكل ما تحمله الكلمة المطاطة من معانٍ بين طرفيها، خرجت إلى الطريق ترمي بنظراتها اليقظة هنا وهناك، ولو ساءها في هذه اللحظات قول لكان كل قول يأمرها بالعودة إلى مكة، وكذا لو ساءها فعل لكان كل فعل يجبرها على العودة، فتمنت لو تملك جناحين تهفو بهما في الهواء، وتشق الفضاء إلى المدينة شقاً، وراحت تتواثب في خفة حذرة، وتحثّ خطواتها على نهب طريق ليس لها به عهد، ولا ريب لديها من كثرة العقبات التي تخترمه، ولا ريب أيضاً أنها لاذت بالله ترجوه وتسأله التيسير، وما كان سبحانه وتعالى ليتخلَّى عنها، فقيّض لها رجلاً حازت نفسه الأمانة والمروءة من جميع أطرافهما ونواحيهما.

إن شأني لعجب وطالما أُحَمِّل خواطري الكليلة ما لا قِبَلَ لها به، فلئن حَـفَظَت أسفار[1] التاريخ خبر هجرة أم كلثوم عنها فلنسمعه منها، فإن ذلك يُـضْفي عليه تقديراً وإجلالاً ويُـبْدي لنا شمائلها اللطاف، فليصغ القارئ السمع إليها، ولا يستهن بها استهانة بي، لينصت الآن إنها تتحدث:

كنت أخرج إلى بادية لنا فيها أهلي، فأقيم بها الثلاث والأربع، وهي

(١) كتب.

ناحية التنعيم، ثم أرجع إلى أهلي فلا ينكرون ذهابي البادية، حتى أجمعتُ المسير[١] خرجت يوماً من مكة كأني أريد البادية، فلما رجع من تبعني إذا رجل من خزاعة فقال: أين تريدين؟

قلت: ما مسألتك، ومن أنت؟ قال: رجل من خُزاعة، فلمَّا ذَكَرَ خُزاعة اطمأننت إليه لدخول خُزاعة في عهد رسول الله ﷺ وعقده، فقلت: إني امرأة من قريش، وإني أريد اللحوق برسول الله ﷺ، ولا علم لي بالطريق.

فقال: أنا صاحبك حتى أوردكِ المدينة، ثم جاءني ببعير فركبته، فكان يقود لي البعير ولا والله ما يكلمني بكلمة حتى إذا أناخ البعير تنحى عني، فإذا نزلت جاء إلى البعير فقيده بالشجرة وتنحى إلى فيء شجرة، حتى إذا كان الرواح حدج[٢] البعير فقرَّبه وولى عني، فإذا ركبت أخذ برأسه فلم يلتفت وراءه حتى أنزل، فلم يزل كذلك حتى قدمنا المدينة فجزاه الله من صاحب خيراً.

فدخلت على أم سلمة وأنا منتقبة، فما عرفتني حتى انتسبت[٣] وكشفت النقاب، فالتزمتني وقالت: هاجرتِ إلى الله عز وجل، وإلى رسوله، قلت: نعم، وأنا أخاف أن يردني رسول الله كما ردَّ أبا جندل، وأبا بصير، وحال الرجال ليس كحال النساء، والقوم مصبحي قد طالت غيبتي اليوم عنهم خمسة أيام منذ فارقتهم وهم يتحينون قدر ما كنت أغيب ثم يطلبونني فإن لم يجدوني رحلوا.

---

(١) عقدت عزمها على الهجرة.
(٢) الحِدْجُ: مركب من مراكب النساء كالهودج، والمِحَفَّة.
(٣) ذكرت اسمها ونسبها.

فدخل رسول الله ﷺ على أم سلمة، فأخبرته فرحب بي وسهَّل، فقلت: إني فررت إليك بديني فامنعني، ولا تردني إليهم، يفتنوني ويعذبوني، ولا صبر لي على العذاب، إنَّما أنا امرأة وضعف النساء إلى ما تعرف، وقد رأيتك رددت رجلين.

ولمَ تحذر أم كلثوم كل هذا الحذر، وتشفق على نفسها من أن يردَّها رسول الله ﷺ إلى قومها وهي التي غامرت وخاطرت، وركبت الأهوال مهاجرة بدينها؟ لأنها هاجرت في هدنة الحديبية سنة ٧هـ، وكان من شروط صلح الحديبية أنه «لا يأتي محمد أحد من قريش إلَّا ردَّه إليهم، وخلَّى بينه وبينهم وإن كان على دينه».

لذا خرج أخواها الوليد، وعمارة حتى قدما المدينة، وقالا للنبي ﷺ: يا محمد، أوفِ لنا بشرطنا، وما عاهدتنا عليه.

فانبثق في رأس أم كلثوم رضي الله عنها خاطر ملك عليها مشاعرها وجعلها تسأل النبيّ ﷺ: أتردني يا رسول الله إلى الكفار يفتنوني عن ديني، ولا صبر لي وحال النساء من الضعف ما قد علمت؟

فأنزل الله تعالى في شأنها قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، راحت أم كلثوم تصغي إلى كلماته وهي تتألق على الفم الشريف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المُمْتَحنَة: ١٠].

وامتحنها رسول الله ﷺ كما امتحن النساء بعدها، بقوله الشريف: «والله ما أخرجكن إلَّا حب الله ورسوله والإسلام، وما خرجتنَّ لزوج ولا مال»[١].

قالت عائشة رضي الله عنها: فمن أقرَّت بهذا الشرط منهن قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك»، كلام يكلمها به، والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، وما بايعهن إلّا بقوله[٢]، فلمَّا أقرت أم كلثوم بهذا الشرط قال النبي ﷺ للوليد، وعمارة أبي عقبة: «قد نقض الله العهد في النساء بما قد علمتاه»؛ فانصرفا[٣].

ويقيناً أن أم كلثوم زفرت في راحة، ومع مرور الأيام كانت تستعيد النبرات الشريفة في شغف وتلذذ واستمراء؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

واستقرت أم كلثوم في دنياها الجديدة في هناءة لم تعهدها من قبل بين أبويها أو أخويها، وانعكست مشاعرها على كل ما حولها، فراحت ترى الأشياء بعيون تبتسم وهي تجدّ في مسيرتها لتلحق بالركب السبَّاق، مدركة تبعات دينها وتتحملها خير التحمل.

ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة، ولكرامة أم كلثوم في الإسلام وعند المسلمين تزوجت من أربعة من كرام الصحابة، حيث تزوجت زيد بن حارثة، فلمَّا استشهد عنها بـ«مؤتة»، تزوجها الزبير بن العوام فولدت له زينب ثم طلقها، فتزوجها عبدالرحمن بن عوف وأولدها إبراهيم، وحميداً، فلمَّا توفي

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٠).
(٢) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٠)، وأحمد (٤/ ٣٣١).
(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٠)، وأحمد (٤/ ٣٣١).

عنها تزوجها عمرو بن العاص فتوفيت هي عنه في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً[١].

ورحلت أم كلثوم بنت عقبة ﵄ إلى ربها، بعدما جعلت من أحداث حياتها صغيرها وكبيرها ما يثيرها ويدفعها نحو هدفها، وما كان لها هدف في أُولاها وأُخراها من هذا السياق، سوى اللحاق بالركب السبَّـاق.

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٠)، طبقات خليفة (٣٣٢)، تاريخ الإسلام (٢/ ٢٥٤)، صفة الصفوة (١٣٧)، المستدرك (٤/ ٦٦)، الإصابة (١٢٢٣١)، الاستيعاب (٣٦٦٣)، أسد الغابة (٧٥٨٥).

أم موسى اللخْمِيَّة.. بطلة فوق ساحة «اليرموك»

أم موسى الْلَخْمِيَّة، زوج نصير الْلَخْمِي[١]، وأم الأمير المشهور موسى بن نصير.

أدركت النبي ﷺ وقد بلغت مبلغ الفتيات، في سطور ثلاثة وكفى تحدث عنها التاريخ ثم سكت، ولكنه أوردها سطوراً حافلة ومميزة، حيث ينضوي[٢] خلف كلماتها خبر لا شك أنه كان حديث الناس وقت حدوثه، وما تطالعه عين على صفحات التاريخ إلَّا ويعقبه في الذهن خاطر يساوره، ويملأه بمعنى أحقيته للذكر عن جداره، فلنذكره بتروٍّ.

في السنة الخامسة عشرة من الهجرة الشريفة، فُتِح الأردن كله، وفيه كانت معركة «اليرموك» كواحدة من أرهب معارك التاريخ وأشدّها ضراوة، إذ إنَّ الروم كانوا قد حشدوا كل قواهم العسكرية من عدد وعدَّة، مجمعين عزائمهم على لقاء لا تقوم للعرب من بعده قائمة ومن ثمَّ إلقاء دينهم الجديد تحت طبقات النسيان الثخينة[٣]، فخرجوا في ٣٠٠ ألف مقاتل بقيادة تذارق، شقيق ملكهم هرقل، وبينما غطُّوا الأرض بكثرتهم، كان المسلمون في ٤٠ ألفـًا، ولكن حسبهم للنصر سببان؛ الأول: شعارهم ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ

(١) هو نصير بن عبدالرحمن بن زيد اللخميّ نسبة لقبيلة لخم، كان على حرس معاوية بن أبي سفيان، وقيل: على شرطة معاوية عندما كان والياً على الشام في خلافة عمر، وعثمان، رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) ينضم خلفها.

(٣) السمينة، والصلبة الغليظة.

وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ [مُحَمَّد: ٧]، والثاني: قائدهم خالد بن الوليد ﷺ، ترى هل يتجرع جيش حاز هذين السببين مرارة الهزيمة؟!

وكانت أم موسى اللخميَّة قد خرجت برفقة زوجها نصير اللخميّ ﷺ، وضوى[١] نصير إلى الرجال، وانضمت هي إلى النساء، وطفقت تتطلع إلى الصفوف المتراصَّة في تحفز، وزأرت الحرب، وضرى[٢] لهيبها، وبينما هي تترقب أحداث المعركة في قلق، واختلاط، واضطراب، وتترصد شوارد أخبارها في خفَّة وعلى عجل، أبصرت علجاً[٣] يجر رجلاً من المسلمين، وقد بدا المسلم مهزوماً، وأوشك العلج على قتله، أتاها المشهد مزلزلاً مدوياً، حدقت إليه مغيظة حانقة لكأن جيش المسلمين يُهزم كله في هذا الرجل.

أسرع فؤادها في دقاته غضباً وحميّة، وما استطاعت طبيعتها الشجاعة المُكْث في عباءة السلبية منتظرة ما ينفرج عنه الأمر، فنزعت نفسها من أنوثتها الموفورة، وتسربلت[٤] بعباءة المقاتل الكميّ، وشمرت عاجلة عن ساعديها، وتناولت عمود الفسطاط، وانطلقت صوب المشهد كالقذيفة ووضعت له نهاية، فشدخت[٥] رأس العلج بعمود الفسطاط، فارتطم بالأرض من فوره يعالج أنفاسه الأخيرة بينما وقفت هي تتنفس في راحة.

وعملاً بالمبدأ الذي قررته الحكمة العسكرية النبوية: «من قتل كافراً فله

---

(١) مال وانضم.
(٢) اشتدَّ.
(٣) الرجل الغليظ الشديد من كفار العجم، وكل صلب وشديد من الرجال يسمَّى علج.
(٤) ارتدت، والكميّ: الشجاع.
(٥) شقت.

سَلَبَهُ»[١]، عمدت السيدة الكميَّة إلى سَلَبِ[٢] العلج لتغنمه، وبنظرات ملؤها الشكر والامتنان يتطلع إليها الجندي المسلم ثم ينتفض ويساعدها في سلب الرومي المصروع ويدفعه إليها.

نصر المسلمون الله فنصرهم عز وجل وثبت أقدامهم، ورسم خالد بن الوليد لوحة عزيزة ونادرة لعبقرية القيادة، ورسم جنده لوحة مشرقة وباهرة لبراعة القتال، وقتلوا نحو ١٥٠ ألف رومي، وزفَّت الملائكة منهم ٣ آلاف إلى فراديس الشهداء.

وهنا يطلُّ علينا سؤال باسماً من بين الأحداث، يزفر في راحة وهو يعلن عن نفسه: كيف تنتصر القلَّة على الكثرة بشكل يبهر الألباب على ساحة اليرموك؟!

ونَـردُّ سؤالاً بسؤالٍ: ألا يُـقـال الحق ما شهدت به الأعداء؟

إذاً، لنسمع الإجابة عن كيفية هذا النصر الغريب والعجيب التي تنتظمها شهادة جاءت على لسان أمير رومي قال لهرقل: نحن أكثر منهم عدداً وعدَّة، ولكن لا نقدر عليهم لأنهم يقومون الليل، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، أمَّا نحن فنشرب الخمر، ونزني، ونظلم، وننهى عمَّـا يُرْضي الله، فقال هرقل: صدقت[٣].

بكلمة واحدة «صدقت» أجاز هرقل أسباب النصر والهزيمة في كل زمان ومكان!

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣/ ١١٤)، ومسلم (١٧٥١)، وأبو داود (٢٧١٨).

(٢) الغنيمة.

(٣) انظر: البداية والنهاية، وقعة «اليرموك»، ذكرها ابن كثير رحمه الله في أحداث سنة ١٥هـ.

وعلى حروف إجابته الواجزة والناجزة يتلألأ تفسير الكلمات الربانية الخالدة: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [الأنفال: ١٠].

وما يسكت هذا السؤال قانعاً بالإجابة، مقتنعاً بمعنى الآية الكريمة غاية مطاف الاقتناع إلَّا ويعقبه سؤال آخر: كيف ترى الدنيا رجالاً جاؤوا من أرحام أم موسى اللخميَّة ونظائرها؟

ويجيب التاريخ الأمين: تراهم فحسب من طراز ولدها موسى بن نصير الأمير المشهور[1]، والقائد العسكري الفذُّ، الذي أدى دوراً بارزاً في انتشار الإسلام، وتوسيع رقعة الدولة الأموية، شارك في فتح قبرص بعهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم أصبح والياً على أفريقيا من قبل الوليد بن عبدالملك، واستطاع ببراعته العسكرية أن يُنهي نزعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين، وقام بفتح الأندلس، وفتح شبه الجزيرة الأيبيرية، وأسقط مملكة القوط الغربية التي تعرف الآن بجنوب غرب فرنسا، الأمير الذي تسامعت الدنيا بأخباره التي أشرق ضياؤها من وصايا أمه التي أرضعته إياها مع حليبها، وخبرها الذي أورده التاريخ في سطور ثلاثة وكفى.

لكنه أوردها سطوراً حافلة ومثيرة، تجتر أم موسى منها السعادة كلما أعوزتها السعادة، ويجتر غيرها منها بطولة نادرة، حتى أن عبدالعزيز بن مروان كان يستحكيها ذلك فتصفه له، قائلة: بينما نحن في جماعة من النساء -يوم «اليرموك»- إذ جال الرجال جولة، فأبصرت علجاً يجر رجلاً من المسلمين،

(١) الأمير موسى بن نصير: أبو عبد الرحمن موسى بن نصير (١٩ - ٩٧هـ/ ٦٤٠ - ٧١٦م).

فأخذت عمود الفسطاط ثم دنوت منه فشدخت رأسه، وأقبلت أسلبه، فأعانني الرجل على أخذه[١].

(١) البداية والنهاية، أحداث العامين ١٣، ١٥هـ، الإصابة (١٢٢٧٩).

أم هشام بنت حارثة.. زهرة بني النجار

أمها: أم خالد بنت خالد بن يعيش الأنصارية.

ما نتمهل أمام سيرتها إلَّا ونلمح مزايا وتفردًا، ولا غرو[١] أنها ابنة حارثة بن النعمان، ولا ريب أنها اكتسبت تفردها من تفرد أبيها ﷺ، ذلكم الرجل الذي استمالت قلبه على الفور كلمات الداعية المكيّ مصعب بن عمير ﷺ فأعلن إسلامه لله عز وجل، وعاد إلى داره يدعو أسرته، فأسلمت جميعها من يومها تتقدمهم زهرة بني النجار اليانعة أم هشام بنت حارثة، وآل الجميع على أنفسهم أن يفدوا النبي ﷺ بالمهج والأرواح، وما أن حلَّ ﷺ بدار مهاجره[٢]، حتى كان حارثة بن النعمان وابنته أم هشام في طليعة مستقبليه، واستطار[٣] قلب حارثة فرحاً لما نزل المهاجر العظيم ﷺ بدار أبي أيوب الأنصاري لأن حارثة كان من بني النجار، وكان منزله ﷺ بدار أبي أيوب قريباً من داره.

وجعل ﷺ يتحوَّل عن منازله للنبي ﷺ كلما أحدث أهلاً[٤] حتى استحى منه ﷺ، ولما تزوج عليّ بن أبي طالب من الزهراء ﷺ كانت دارهما بعيدة عن بيوتات النبي ﷺ ومسجده، ولم يطق ﷺ على بعدهما صبرًا، وتمنى لو يبدلهما بدارهما دارًا قريبة من غير دور حارثة الذي يستحي ﷺ منه، ونما

(١) لا عجب.
(٢) المدينة التي هاجر إليها ﷺ وجعلها سكنًا له.
(٣) تهلل وفرح فرحا شديدًا.
(٤) كلما تزوج ﷺ بواحدة من نسائه.

الخبر إلى حارثة، فانطلق ﷺ صوب النبي ﷺ، وقال له: بلغني يا رسول الله أنك تريد أن تحوِّل فاطمة إلى جوارك، وهذه منازلي أقرب بيوت بني النجار إليك، يا رسول الله، والله إن الذي تأخذ أحبَّ إليَّ من الذي تدع، فقال ﷺ: «صدقت بارك الله فيك»[١].

وفي أريحية لم يشهدها التاريخ إلَّا من أصحاب محمد ﷺ تحوَّل حارثة عن داره، وتحوَّلت الزهراء إلى جوار أبيها ﷺ، ترى أين نجد هذا الإيثار النبيل؟!

وفي هذه البيئة الكريمة، وهذا المنبت الطيب تفتح صِبَـا أم هشام بنت حارثة، وكان للجيرة الشريفة التي فاض منها نور النبوة أثرها في نفسها، فهي تسبح في لألائها، وتغترف من بركاتها، ترى النبي ﷺ عن قرب، وتتعامل مع أزواجه عن كثب، تقول ﷺ: لقد كان تنورنا[٢] وتنور رسول الله ﷺ واحدًا سنتين أو سنة وبعض سنة.

فكان مما خلع عليها تفردًا عن ولائد[٣] بيئتها قُـرْبها من بيوت رسول الله ﷺ، ومعرفتها بأحوالهم.

يتخبط الكثيرون في الحياة دون بذل الجهد في إثراء دينهم وثقافتهم رغم الأسباب التي تحيط بهم من هنا وهناك، وتفضي بهم -لو أجادوا استغلالها- إلى هذا الإثراء الديني، والثقافي ولكنهم ليسوا طلاب نفوس كبيرة، وإنَّما طلاب ما هو غيرها من الشهوات، وكانت أم هشام نفسًا كبيرة، وجميلة لكأن

(١) حديث مرسل، وفيه الواقدي وهو متروك.
(٢) فرن يُخبز فيه، عبارة عن تجويفة أسطوانية تُـبطّن بخزف أو طوب محروق من الطين.
(٣) الغلمان والبنات.

جيرة النبي ﷺ كانت لها مطلبًا ذهنيًا، وضروريًا فغنمتها بوعي وبراعة، فإذا خطب ﷺ يوم الجمعة، شرعت أذناها مدققة تأخذ آي الله من فمه الشريف غضَّة طرية كما نزلت عليه، فلم يكن بينها وبين الله عز وجل إلَّا جبريل عليه السلام، والنبي ﷺ، حتى أخذت بعض القرآن عنه ﷺ، قالت رضي الله عنها: ما أخذت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: ١] إلَّا من لسان النبي ﷺ، يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس(١).

فكان من المناسب جدًا لشخصية ذات نفس كبيرة كأم هشام أن تفعل ما فعلت حتى أكسبت ذهنها ثقافة شرعية وضرورية، وفي شرح الحديث قال الإمام مسلم: قال العلماء: وسبب اختياره ﷺ (ق) أنها مشتملة على البعث والموت، والمواعظ الشديدة، والزواجر الأكيدة، وفيه دليل للقراءة في الخطبة كما سبق واستحباب قراءة (ق) أو بعضها في كل خطبة.

ودائماً ما تسرع الأوقات السعيدة في مضيها، وتخفُّ أيام السراء في سيرها، فما لبثت السنون أن توالت، وفي شهر ذي القعدة من السنة السادسة من هجرة الحبيب أعلن النبي ﷺ خروجه إلى مكة معتمراً، واستنفر ﷺ الناس من حوله، فخرج معه ألف وأربعمائة أو ألف وخمسمائة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «يوم الحديبية» كنَّا خمس عشرة مائة(٢).

وعقدت قريش مجلسًا استشاريًا، وقررت صدَّ المسلمين عن دخول مكة وأداء العمرة، ثم حدث ما حدث من سفارة عثمان بن عفان رضي الله عنه وحبس

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢)، (٨٧٣) كتاب الجمعة.
(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦).

قريش له، وإشاعة مقتله، وقول النبي ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»[١].

ودعا أصحابه إلى البيعة فوثبوا إليه يبايعونه، وفي هذا اليوم الأغر[٢] بايعت أم هشام بنت حارثه مع المبايعين الذين أنالتهم البيعة الميمونة رضوان الله، حيث قال فيهم عز وجل: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفَتْح: ١٨]، وقال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد»[٣].

لتزهو أم هشام وتزدهي بمنقبة البشرى النبوية في ذاك المجتمع الإسلامي المعتز بدينه، كما كانت تزهو وتزدهي في صباها بمنقبة الجيرة النبوية الشريفة.

وما بالقارئ حاجة إلى أن نصور له الوقع المتفرد للبشرى الميمونة في نفس أم هشام الحساسة وهي تجد فيها أنسها ومسرتها، وتذكرها وتتذكرها في مصبحها وممساها.

وفي حدث لم يقف التاريخ عنده أو يتمهل أمامه، وفي زمن لم يسجله أو يذكره صعدت أم هشام بنت حارثة إلى ربها، تحدوها إليه بُشْرَاها الميمونة لتعيشها في جنانه واقعًا ملموسا، ورغم ندرة أخبارها في ذاكرة التاريخ، نلمح في سيرتها رقة ولطفًا، ومزايا وتفردًا[٤].

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة.
(٢) اليوم الخالد، الشاهد.
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (٢٤٩٦).
(٤) الإصابة (١١٥٨٧)، (١٢٢٩٣)، أسد الغابة (٧٦٢٣).

عاتكة بنت زيد.. مَنْ أراد الشهادة فليتزوجها!

من أراد أن يستشهد فليتزوج عاتكة..

لأن غريزة الإيمان بالله مستكنة في أعماق النفس البشرية منذ كان آدم، كان زيد بن عمرو بن نفيل[١] يُلقي رحاله في أكناف الكعبة، يبلُّ[٢] أشواقه إلى الله، ويقول: اللهم لو أنِّي أعلم أي الوجوه أحبَّ إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحلته، لكأنه جمع نَجَابَة العقل، وتفوُّق الحكمة، من جميع أطرافهما فكان لبيباً من أَلْبَاب عصره، ولكن عقله وحكمته كانا عليه وبالاً من الشقاء، حيث ساقاه إلى أن يطرق في الحياة طريقاً غير مطروقة من قِبَل قريش، واتخذ لنفسه إلهاً تقره فطرته السويَّة، ويسكن قلبه في السجود له، وطلب الحاجات منه، فعانى من تعنت قريش معه، واضطهادها له أشد العنت، وأقسى الاضطهاد.

تغالبني رغبتي في الصياح بوجهي: ما لنا والرجل، دعه وشأنه وامض مع ابنته فهي ربة[٣] هذه الدراسة السريعة، فأرفع قلمي عن الورقة المنبسطة

(١) زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي، رحمه الله، أحد أشهر الموحدين في الجاهلية، ترك عبادة الأوثان، وكان لا يأكل إلَّا ما ذبح على اسم الله وحده، وهو والد سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، من زوجته فاطمة بنت بَعْجَة بن أُميّة، ووالد صاحبة هذه الترجمة من زوجته أمّ كُرْز بنت عمّار بن مالك بن ربيعة، البداية والنهاية لابن كثير، فصل زيد بن عمرو بن نفيل (٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنَدِّي ويُرَطِّب.

(٣) صاحبة.

أمامي في استسلام، وأحدث نفسي في خفوت: إنه أبو عاتكة التي ورثت عنه خير ميراث من العقل والحكمة والنبوغ المبكر، أمَّا الحُسن الرائع والجمال الأخَّاذ التي وشت بهما كتب السيرة عن عاتكة قائلة: «كانت حسناء جميلة»، فلا ندري من أين كان إرثها منه، كان من أبيها زيد بن عمرو، أم من أمها أم كريز بنت عبدالله بن عمَّار بن مالك.

وليفسح لي القارئ العزيز من صدره ووقته قليلاً لأوصيه: قلِّب في ذاكرة التاريخ، وبطون الكتب عن زيد بن عمرو، فإن سيرته والله جديرة بالتتبع والتوقف معها وعندها.

ولننصرف عن خبر الرجل إلى سيدة اللقاء لنسأل: ترى ما شيم الذرية التي ينجبها نظائر هذا الرجل؟ وكأنِّي بالقارئ العزيز يجيب مُحدساً: فيض الحكمة، ووفرة الذكاء، ونقاء الفطرة، والإبداع في الشعر والبلاغة والفصاحة، والصبر على النوازل والملمات[١].

أجل، كانت هذه على ما تشي به كتب السيرة شيم ذرية زيد بن عمرو بن نفيل، فحسب ولده سعيد بن زيد أنه من العشرة المبشرين بالجنة، الذين صرَّح بهم النبي ﷺ في حديثه الشريف: «أبو بكرٍ في الجنَّةِ، وعمرُ في الجنَّةِ، وعليٌّ في الجنَّةِ، وعثمانُ في الجنَّةِ، وطَلحةُ في الجنَّةِ، والزُّبَيرُ بنُ العوَّامِ في الجنَّةِ، وعبدُالرَّحمنِ بنُ عوفٍ في الجنَّةِ، وسَعيدُ بنُ زيدِ بنِ عمرو بنِ نُفَيلٍ في الجنَّةِ، وأبو عُبَيدةَ بنُ الجرَّاحِ في الجنَّةِ»[٢].

---

(١) المصائب والكوارث.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٣٧٤٧)، وأحمد (١/ ١٩٣)، وصححه الألباني في شرح

أمَّا ابنته عاتكة بنت زيد فكان إرثها من هذه الشيم خير ميراث، وحازت نفسها الكبيرة والجميلة بها جميعاً، وفوقها وقبلها فقد كانت بهيَّة الحسن رائعة الجمال.

أجل، فمن اليقين أن جمالها تبدَّى عليها منذ ولادتها وقبل أن يشي سلوكها بشيمها التي سلكت بصباها في مسالك الروعة والتميز، وما أن شبَّت عن الطوق ونادى ﷺ بدعوة الحق حتى تجاوبت عاتكة مَسُوقَة بِنُبْل شيمها مع صدى الدعوة المتردد في أرجاء مكة، وكذلك تجاوبت من فورها مع الدعوة الميمونة بالهجرة إلى المدينة، وانتفض عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنه قبل غيره متعجلاً حين عجل به رُقِي ذوقه وعَجَبَه بالجمال المزدان بحسن الخُلُق ليستأثر بعاتكة كزوجة كريمة.

وهنا يهتف بنا السؤال: لماذا تمّ اختيار عاتكة ضمن فتيات العهد النبوي رغم أن المصادر لم تُصرِّح بتاريخ مولدها؟

وباستشفاف تاريخي نقول: ولد عبدالله بن أبي بكر في عام ٦١٠م؛ أي في العام الذي بُعِث فيه النبي ﷺ تقريباً، وهكذا يكون قد هاجر وعمره ١٣ عاماً، ونستطيع أن نقرر بقوة أن عاتكة كانت تتوافق معه في السن، أو كان هو أسنُّ منها لأنه أول زوج لها؛ لذا كانت ضمن الفتيات في العهد النبوي الشريف.

وهام عبدالله بعاتكة وجداً، تروقه أيامه على أي حال طالما كان يروح ويغدو بقُرْبِها، فلزم الدار والجوار ونفى من نفسه كل شيء غيرهما، وحسبه من الدنيا كنزه عاتكة، حتى شُغِلَ بها عن الغزو والجهاد.

العقيدة الطحاوية (٤٨٧).

ولكنه ابن أبي بكر الذي لم يبلغ أحد في الغيرة على الإسلام مبلغه، وما وطئ الأرض مسلماً بعد النبي ﷺ إلا وكان أبو بكر أشد منه حماسة لنصرة الإسلام، وأحسن منه عملاً لأجله، فهل يعتكف ولده في داره متقلباً على فراش وثير زاوياً نفسه عن قضايا الدين، أو زاوياً قضايا الدين عن نفسه؟

قاس أبو بكر ولده عليه، فكان القرار الصعب؛ أمره بطلاقها، وأنف جمالها راغم! وعظمت مشقة الأمر على نفس عبدالله، فأنشد يقول:

يقولون طَلِّقْهَا وخَيِّـــمْ مكَانهَا ... مُقِيمًا تُمَنِّـــي النَّفْسَ أحْـلَامَ نَائِمِ

وإنَّ فِرَاقِي أهْلَ بيـــتٍ جَمَعْتُهُمْ ... على كَثْرَةٍ منِّـــي لإحْدَى العَظَائِمِ

فعزم عليه أبوه حتى طلقها، فتبعها عقله وتعقبتها نفسه ولم يجاوزها قلبه، فسيقوا جميعاً إلى محبسها، وطفق يستقبل يومه وقد بلغت غمرات الأسى بنفسه مبلغاً لم تبلغه بأمسه، وقاسمت عاتكة عبدالله وجع الفراق، وشاطرته مرارته، ولكن ماذا عساها أن تفعل؟

انسابت من صدرها تنهيدة خاشعة، وأسلمت أمرها راضية بأمر الله رغم الأحزان التي تتناوح[1] في نفسها الحساسة، وكان عبدالله كلما اشتدت عليه وطأة الفراق لاذ بكلماته يبثها معاناته، حتى سمعه أبوه يوماً يقول:

أَعَاتِكُ لا أنْســـاكِ ما ذَرَّ شَارِقٌ ... وما ناحَ قَمَـــرِيٌّ الحَمامِ المُطَوَّقُ

أَعَـاتِكُ قـــلبي كـل يـومٍ وليْلَةٍ ... إليـكِ بمـا تُخْفِي النُّفوسُ مُعَلَّقُ

ولم أرَ مِثْلِي طَلَّـــقَ اليوم مِثْلَهَا ... ولا مِثْلُهَا من غير جُـــرْمٍ تُطَلَّقُ

(١) تصيح وتنوح.

لها خُلُقٌ جَـــزْلٌ ورَأْيٌ ومَنْصِبٌ وخَلْقٌ سَـــوِيٌّ في الحَياءِ مُصَدّقُ

فحنَّ له أبوه وحنا عليه، وكان حنوناً بطبعه، وأَذِنَ له أن يُراجِعها شريطة عدم تخلفه عن الغزو والجهاد[١]، وذاق عبدالله من تجربة الفراق القصيرة ما ذاق، وخرج للجهاد، وربما طمحت نفسه إلى الشهادة، وإلى أن تكون عاتكة زوجاً له في الجنة، ودفعه الحب إلى أن يضنّ بعاتكة على غيره إن مات عنها، وشاركته هي شعوره، فاتفقا على عدم زواجها من بعده، على أن يجعل لها من ماله ما يكفيها مؤونة العيش.

وفي رمضان ٨هـ، خرج النبي ﷺ لفتح مكة، وانضوى[٢] عبدالله بن أبي بكر تحت رايته الشريفة، وشهد «فتح مكة»، ثم شهد «حنيناً»، وبعد النصر على ثقيف وهوازن في «حنين»، لاذت ثقيف ومن معها بحصون الطائف، وتبعهم ﷺ بجيشه إلى هناك وحاصرهم، ورماهم رجال ثقيف بالسهام وكانوا قوماً رماة، فأُصيب عبدالله بن أبي بكر بسهم رماه به أبو محجن الثقفي فجرحه وعاد إلى عاتكة جريحاً، وسهرت عليه حتى اندمل[٣] جرحه.

وصعد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وارتجت نفس عاتكة حزناً لموته ﷺ، وقام أبو بكر رضي الله عنه بأعباء الخلافة، وبينما كانت عاتكة تُعالج حزنها على النبي ﷺ، انتفض جرح عبدالله الذي كان قد اندمل ومات رضي الله عنه منه، فانحنت على أحزانها، وقلبها يرجف وأوصالها ترتعد، وطفقت عيونها تغمر وجهها

(١) نحن نُخَمِّن بذلك بدليل خروج عبدالله إلى الغزو بعدها واستشهاده.
(٢) انضم.
(٣) بدأ يَبْرأ ويلتحم.

بدموعها السخينة وهي تستشعر حياتها ولا غنية لها بها عن عبدالله.

لم تكن الأيام تُقدِّر وقع الحزن عليها، ولكن أنَّى لها أن تخفيه عنها، وغير مرة ترنو عاتكة إلى اللاشيء، تُقارب بنظراتها بين طيف عبدالله وبينه، وتنشد حسيرة النفس، متهدجة الصوت:

رُزِئْـــــتُ بخير النَّاسِ بعد نبيِّهِمْ ... وبعد أبي بكرٍ ومـــــا كان قصَّرا

فآليْتُ لا تَنْـــــفَكُّ عيني حزينةً ... عليك، ولا ينْفَـــــكُّ جِلْدِيَ أغْبَرَا

فللهِ عيْـــــنًا من رأى مِثْلَهُ فتًى ... أكَرَّ وأَحْمَى فـــــي الْهَيَاجِ وأَصْبَرَا

إذا شُرِعَتْ فيه الْأَسِنَّـــــةُ خَاضَها ... إلى الموتِ حتَّى يَتْرُكَ الرُّمْحَ أحْمرَ

وتبتلت رافضة الزواج، وجعل الرجال يخطبونها، وهي تأبى[1].

ومات أبو بكر رضي الله عنه بعد أن أدى ما عليه أكمل الأداء وأعظمه، وقام بأعباء المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وراع أمير المؤمنين وروعه أن تُحرِّم عاتكة ما أحلَّه الله عز وجل، فأرسل إليها يقول: إنَّكِ قد حرَّمت على نفسكِ ما أحلَّ الله لكِ، فردِّي المال إلى أهله وتزوجي.

وارتاعت عاتكة من رسالة الفاروق، وكأني بها تتساءل مبهوتة: أُحرِّم ما أحلَّ الله؟!

وردت مال عبدالله بن أبي بكر إلى آله، وخطبها عمر رضي الله عنه فقبلته، وتزوجها علَّ حزنها ينصرف عنها، وكانت عاتكة تعرف في عمر غيرته وشدته في الحق؛ فشرطت عليه ألَّا يمنعها من الصلاة في مسجد النبي ﷺ فكره أن

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦٥).

يمنعها، قال عبدالرحمن بن عوف ﷺ: إن عاتكة بنت زيد كانت تستأذنه إلى المسجد، فكان عمر يقول لها إذا استأذنته: قد عرفتِ هواي في الجلوس، فتقول: لا أدع استئذانك، وكان عمر لا يحبسها إذا استأذنته، فلقد طُعِنَ عمر وهي في المسجد.

فبينما هي تبذل جهدها في العناية بالفاروق، طعنه أبو لؤلؤة المجوسي، ولنا أن نمضي خلف وجدان عاتكة ساعة طُعِنَ عمر، وهاج المسجد وماج وكانت حينذاك تُصلي خلفه بالمسجد.

وصعد الفاروق شهيداً، ولا ريب أن عاتكة سمعت يوماً ما ذكره أنساً بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ صعد «أُحداً» ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف (أي «أُحد»)، فضربه ﷺ برجله، وقال: «أُثْبُتْ أُحد فما عليك إلَّا نبي وصدِّيق وشهيدان»(١).

ولعلَّ الفاروق حكى لها يوماً وعيناه تلتمعان من السعادة ما بشره به النبي ﷺ لمَّا رأى عليه يوماً قميصاً أبيض، فسأله: «ثوبك هذا غسيل أم جديد؟»، قال ﷺ: لا بل غسيل، فقال ﷺ: «البس جديداً، وعِش حميداً، ومِت شهيداً»(٢).

صعد الفاروق شهيداً، وشتَّان بين يوم عاتكة وأمسها، شتَّان بين أمس كان لها فيه مَأْوى في رحاب فاروق الأمة وأمير المؤمنين، ويوم شقَّ حزنه على قلبها، وتسعفها براعة قريحتها، فتقول:

عينُ جـــودِي بِعَبْـــرَةٍ ونَحِيبِ لا تَمَلِّي على الإمـــامِ النَجِيبِ

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٣٦٧٥)، والترمذيَ (٣٦٩٧).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥٨)، وأحمد (٥٦٢٠)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٨٧٩).

قل لأهلِ الضَّـرَّاءِ والْبُؤسِ مُوتُوا قد سَقَتْهُ الْمَنُونُ كأسَ شَعُوبِ[١]

وتطرق عاتكة مسترجعة، ثم تعود قريحتها إلى إكمال تصوير فجيعتها، فتُكمل:

فجَعَنـــي فيـــروزٌ لا درّ درّهُ بأبيضٍ تالٍ للكتـــابِ مُنيبِ[٢]

رؤوفٌ على الأَدْنَى غليظٌ على العِدَى أخي ثقة في النَّائِبَـــاتِ مُجِيبِ

متى ما يَقُلْ لا يُكَذِّبُ القولَ فِعلُهُ سريعٌ إلى الخَيرَاتِ غير قطوبِ[٣]

مُطيع لأمرِ اللـــه بالحقِ عارف بعيدُ الأنـــامِ عنـــدهُ كَقريبِ

وما لبث أن خطبها الزبير بن العوام رضي الله عنه، فقبلته عاتكة عارفة قدره وفضله، وربما تناهت إليها أخبار غيرته الشديدة، وكانت نفسها الحسَّاسة مُعلّقة بمسجد النبي ﷺ، فشرطت عليه ما شرطت على الفاروق من قبله ألَّا يمنعها من الصلاة، فوافق رضي الله عنه، ثم وجد من غيرته ما ثَقُلَ على نفسه من خروجها لصلاة العشاء، وكان يعرف فيها عفَّة وحياء، فتحيَّـل عليها بأن كمن لها لمَّا خرجت لصلاة العشاء، فلمَّا مرَّت به ضرب على عجيزتها، فدُهِشت مفزوعة، وهرولت إلى دارها وهي تردد: إنا لله، فسد الناس.. ولم تخرج بعدها أبداً.

أحسنت عاتكة بالزبير صنعاً إذ قررت أن تُجَانِب الصلاة بالمسجد خشية فساد الناس، وإن لم يحمل الخبر شيئاً من فسادهم، وإنما كانت جوانحُها

(١) الموت.

(٢) تقصد أبا لؤلؤة المجوسي قاتل عمر رضي الله عنه، وكان اسمه فيروز النهاوندي، وكان يُدعى أبا لؤلؤة نسبة لابنته.

(٣) متجهم أو عبوس.

مُحمَّلة بالتقوى والحياء، والحذر من الفتنة.

ومرت الأيام سراعاً، واستشهد الزبير رضي الله عنه، وتجرعت عاتكة جرعة وافية من مرارة الفجيعة، ومكاره التَرَمُّل، ونما إلى مسامعها أن قاتل الزبير غدراً يدعى ابن جرموز، فراحت تلوذ بكلماتها وتبثّها مرارة حزنها، وهي تذكر الدنيا بفروسية وشجاعة الزبير، وتُثرِّب على ابن جرموز وتعيره بذنب قتله:

غَدَر ابن جُرْمُـــوزٍ بفارسِ بُهْمَةٍ ... يوم اللقاءِ وكان غيـــر مُعرِّدِ[1]

يا عمرو لـــو نبَّهْتَـــه لوجدتَهُ ... لا طائِشًـــا رَعْشَ الجِنَانِ ولا اليدِ

كم غَمْرَةٍ قد خَاضَهـــا لم يَثْنه ... عنها طِرَادُكَ يا ابن فَقْعِ القَرْدَدِ[2]

ثَكِلتْكَ أُمُّكَ إن ظَفِـــرْتَ بمثْلِهِ ... مِمَّنْ مضى مِمَّنْ يَرُوحُ ويَغْـتَدي

واللهِ رَبِّكَ إن قتلت لمُسْلِمـًـــا ... حَـلَّـتْ عليـك عُقُـوبَـةُ المُتَـعَـمِّـدِ

وردد الناس في المدينة: «من أراد أن يستشهد فليتزوج عاتكة بنت زيد»، وحمل إليها عبدالله بن الزبير ميراثها من أبيه مليوناً ومائتي ألف، وكان للزبير ٤ نسوة، فأصاب كلَّ امرأة ألف ألف ومائتا ألف[3]، وقال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: ويقال: إن عبدالله بن الزبير صالحها على ميراثها من الزبير بثمانين ألفاً.

---

(١) بطل شجاع، وغير مُعَرِّد: تعني غير هارب.

(٢) مجالدة أمثالك في الحروب، والفقع نوع من أردأ الكمأة.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٢٩)، وألف ألف أي مليون، وفي شرح الحديث قال ابن حجر العسقلاني: كان نصيب كل زوجة ألف ألف وثلاثة وأربعين ألفاً وسبعمائة وخمسين.

ولزمت عاتكة ﵂ دارها، وَحَسْبهَا ما تجرَّعت من وَجْدٍ ومرار[١]، ومن حين لآخر تقلِّب صحائف الذكريات، فتسترجع وتلوذ بمعية الله، وفي عام ٤١هـ/ ٦٧٢م[٢]، وفي أول خلافة معاوية بن أبي سفيان ﵁، بسطت عاتكة ذراعيها إلى موعدها، وشَخَصَتْ ببصرها ملبيَّة النداء بعد عمرٍ حَفَلَ بالتُقى والهُدى، وأحداثٍ جِسَامٍ، وشخوصٍ عظامٍ، وترك نعيها لوعة في قلب المدينة الطيبة[٣].

(١) حزن ومَرَارة.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، الجزء الثاني، فصل زيد بن عمرو بن نفيل، ص ٢٤٢.

(٣) تجريد أسماء الصحابة (٢/ ٢٨٥)، التاريخ الصغير (١/ ٣٧)، الاستيعاب (٣٤٧١)، الإصابة (١١٤٥٢)، أسد الغابة (٧٠٨٧).

فُرَيْعَةُ بنت مالك.. العفيفة بنت العفيف

كانت الرغبة في الحديث عن الفريعة بنت مالك بن سنان هزيلة شاحبة، وبسرعة تعمقت الرغبة في الوقوف معها، حيث بدت أهميتها أكثر مما نتصوره، وأجبرتنا على النظر إليها بالعقل والقلب.

ولئن توجه اهتمام نظرنا في البدء إلى نسبها، وإلى الشجرة التي شبت هي كفرع من فروعها لتبدى لنا جانب من جوانب عظمتها.

فأبوها هو مالك بن سنان بن عبيد الأنصاريّ الخُدْريّ، شهد «أُحداً»، وصعد يومذاك شهيدًا في موكب الشهداء، بعد أن مصّ الدم عن وجه النبي ﷺ وازدرده، قال ابنه أبو سعيد الخُدْرِيّ: أصيب وجه رسول الله ﷺ يوم «أُحد»، فاستقبله مالك بن سنان؛ يعني أباه، فمصَّ الدم وجهه ثم ازدرده، فقال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينظر إلى من خالط دمه دمي فلينظر إلى مالك بن سنان»[1].

وقال ابن الأثير في «أسد الغابة»: وطوى مالك بن سنان ثلاثًـا، ولم يسأل أحدًا شيئاً، فقال النبي ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى العفيف المسألة فلينظر إلى مالك ابن سنان».

وأمها حبيبة بنت عبدالله بن أُبَيّ بن سلول، وربما يقول قائل: جاءت

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٤١)، وابن عساكر في التهذيب (٦/ ١١٢)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٠٩٧).

أمها من بيت عز وشرف لا ريب لولا اتباع أبيها لسلطان هواه، حتى بات منافقاً موسوماً بالنفاق، ونقول: ليس هذا فحسب، بل إنه كان كبير المنافقين.

ولكن لا تثريب على الفريعة، فما وقع في الذهن نفاق جدها عبدالله بن أُبيّ إلَّا وتعقبه إخلاص خالها عبدالله بن عبدالله بن أُبيّ، وما انحنى لسان بلائمة على حسد جدّها للنبي ﷺ إلَّا وانحنى حامدًا على حب خالها للنبي ﷺ، بطل يوم «اليمامة» وشهيده، عاش واستشهد كواحد من فضلاء الصحابة رضي الله عنهم جميعًا.

وأخوها أبو سعيد الخُدْريّ الذي طار ذكره في الآفاق كأحد كبار الصحابة وفضلائهم، وأحد السبعة المكثرين من الرواية عن النبي ﷺ.

وفي يوم «أُحد» كانت الفُـرَيْـعَةُ بنت مالك تترقب الأخبار، وتترصد شواردها مثلها مثل النساء والفتيات اللاتي راحت دقات قلوبهن تهز ضلوعهن حذرًا وقلقًـا، واستشهد أبوها وهبَّ الخبر عليها كشظية لفحت وجهها وفؤادها، ولكنها ما زالت تترقب الأخبار وقد تمددت مساحة القلق في نفسها، ربما كانت تنتظر خبر أخيها أبي سعيد؟ لا، فقد استصغره النبي صلى لله عليه وسلم يوم «أُحد» وردَّه وهي بلا ريب تعلم ذلك من أمره، ففيمَ قلقها المتزايد؟

ويقترب منها أخوها، ينعى إليها أباها قائلاً: قال لي النبي ﷺ: «آجرك الله في أبيك»، فاحتسبت الفُـرَيْـعَةُ أباها الشهيد، ودارت بذهنها عبارة أخيها: قال لي النبي ﷺ، إذًا فالنبي ﷺ لم يُصب بسوء.

أجل، طمأنها أبو سعيد على سلامة النبي ﷺ، لكأنَّها قالت في نفسها ما قالته كبشة بنت رافع[١] للنبي ﷺ لما علمت باستشهاد ولدها عمرو بن معاذ: أما إذ رأيتك سالماً فقد اشتويت[٢] المصيبة.

استشهد مالك بن سنان رضي الله عنه مُخَلِفًا صبية صغارًا بلا عائل يتولى أمرهم، أو مال يغنيهم من فقر، وتنهدت الفريعة في أسى، ولم تر من ملجأٍ سوى النبي ﷺ، فقالت لأخيها أبي سعيد: اذهب إلى رسول الله ﷺ فسله لنا، فوالله لا يخيب سائله لأنك منه بإحدى اثنتين؛ إمَّا أن يكون عنده فيعطيك، وإمَّا ألا يكون عنده فيقول: «أعينوا أخاكم».

وامتثل أبو سعيد ومضى إلى النبي ﷺ في مسجده، ولمَّا كان على قيد خطوات منه سمعه يقول: «من يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله»[٣]، كلمات مثيرة تقوي العقيدة، وترفع القدرات، وتُكْسِب الإنسان الثقة بالنفس، والقدرة على التفكير الهادئ.

كان ﷺ أكثر الناس عطاء، وأجودهم نفسًا، ولكنه الآن يركز على الجانب التربوي في منهج يسنَّه لصنع الرجال، وتنمية الطاقة الكامنة لديهم والدافعة إلى الكسب والتربح، كلمات تعني ملكية الإنسان للقدرات، وما عليه إلَّا البحث عنها وإجادة استغلالها؛ «من يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله».

---

(١) أم سعد بن معاذ، راجع قصتها كاملة في «نساء تحت راية النبي ﷺ» للمؤلف، ط المكتبة التوفيقية.
(٢) هانت على المصيبة واستقللتها.
(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (١٠٥٣).

سمع أبو سعيد الكلمات النبوية الشريفة، ولكأنَّ انفجارًا وقع بجواره بغتة فحدث نفسه: ثكلتك أمك سعد بن مالك[١]، والله لكأنَّك أُرِدتَ بهذا، ثم أكمل حديث نفسه متمثلًا النبي ﷺ أمامه: لا جرم، والذي بعثك بالحق لا أسألك شيئاً بعدما سمعت منك، فجلست، فلمَّا فرغ رَجَعْتُ وفريعة تقبل وتدبر وقد بلغ منها الجوع مبلغاً.

لنتأمل المشهد ونتألم مع أبي سعيد، والفريعة، جلس أبو سعيد واستمع إلى النبي ﷺ، ثم عاد لأخته، فوجدها رائحة جائية تضغط بيديها على بطنها، علَّ ألم الجوع يسكن عنها قليلًا فقد مر بها الوقت بطيئاً يُثْقِله لسع الجوع وحرارته، وما فتئت أمعاؤها تتقلص وتمور تسأل عن شيء يملؤها.

ولمحت الفريعة أخاها عائداً بيدين خاويتين، فَبُـهِـتت وسألته: ما لك؟ فوالله ما يخيب سائله! فأخبرها بما سمعه من النبي ﷺ فانتفضت تسأله: وسألته بعد ذلك؟ فأجابها عاجلًا: لا، فردت في عِفَّـةٍ لا تُضَارع، ولا تُنَـاظر: أحسنت.

ولم لا تقول هكذا، وتبدو كذلك؟! أليست ابنة مالك بن سنان الذي طوى[٢] ٣ أيام وما سأل أحداً شيئاً، ولما علم النبي ﷺ ما كان من أمره قال: «من أراد أن ينظر إلى العفيف المسألة، فلينظر إلى مالك بن سنان»؟!

وطوت الأسرة الطيبة صابرة على وخز الجوع ولسعه، وما كان الله عز وجل ليدعهم على هذه الحال، فيضيف أبو سعيد: فلما كان من الغد فإني والله

(١) اسمه سعد، وكنيته أبو سعيد، وغلبت عليه كنيته.
(٢) الطوى: الجوع، والمقصود أنه ظل جائعاً ثلاثة أيام حتى لا يسأل غيره.

لأتعب نفسي تحت الأجم[١] إذ وجدت من دراهم يهود، فابتعنا به وأكلنا، ثم والله ما زال النبي ﷺ محسنًا، فما سألت أحدًا بعده شيئاً فجاءت الدنيا، فما من أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

أجل، ما كان عز وجل ليدع من تطلعوا إلى ما عنده، وزهدوا فيما عند غيره فرزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأكثر مالهم بسرعة تعدت آمالهم، عفوا فأعفهم الله، واستغنوا فأغناهم، لتزهو الأسرة الطيبة وتزدهي ببهجتها الناتجة عن العفة والاستغناء.

وظلت الفريعة رضي الله عنها تعمل لدنياها وآخرتها، تعمل لكل منهما عملها، ولما استنفر النبي ﷺ الناس من حوله للخروج إلى مكة معتمرين في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة خفَّت الفريعة لأداء العمرة معه ﷺ، وكان من أمر قريش ما كان وبايعت الفريعة بيعة الرضوان، فنالت البشارة الإلهية: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفَتْح: ١٨]، ونالت البشارة النبوية: «لا يدخل النار من أصحاب الشجرة أحد»[٢].

وهكذا لم تكن الفريعة بنت مالك بن سنان بالمسلمة العادية، وكذلك عاشت في ذاكرة التاريخ الإسلامي الأمين، فقد ألمت بحياتها نازلة آلمتها وقتذاك أشد الألم، ولكنها أكسبتها مكرمة كبرى، وأنالتها الذكر والخلود في سماء الإسلام، ونفوس المسلمين.

تحكيها رضي الله عنها فتقول: إنها جاءت إلى النبي ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها

(١) الشجر الكثير الملتفّ.
(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

في بني خُدْرَة، فإن زوجها خرج في طلب أعبد له[١] أبقوا[٢]، حتى إذا كانوا بطرف القدوم[٣] لحقهم فقتلوه، فسألت رسول الله ﷺ: أن أرجع إلى أهلي فإنه لم يتركني في مسكن يملكه، ولا نفقة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فخرجت حتى إذا كنت في الحجرة أو في المسجد دعاني أو أمر بي فَدُعِيتُ له، فقال: «كيف قلت؟»، فرددت عليه القصة التي ذكرت من شأن زوجي فقال ﷺ: «امكثي في بيتكِ حتى يبلغ الكتاب أجله»[٤].

فاعتددت فيه[٥] أربعة أشهر وعشرًا، فما كان من عثمان بن عفان إلَّا وأرسل إليّ فسألني عن ذلك فأخبرته[٦]؛ أي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما ولِّي الخلافة، بعث إليها وسألها عن حكم النبي ﷺ فيها، وَحَكَمَ رضي الله عنه به.

وبه حكم كبار الصحابة، وظل حديثها رضي الله عنها هو عمدة الأحاديث في هذا الباب، لينفع الله به الإسلام والمسلمين كحكم صحيح لهذه المسألة الفقهية مصدره النبي ﷺ.

وفي رحاب المدينة الطيبة، ولألاء العمل الصالح عاشت الفريعة بنت مالك ما شاء الله لها أن تعيش، وهي من تلكم الصحابيات الفضليات اللاتي لا يُـعرف تاريخ وفاتهن.

---

(١) عبيد.
(٢) هربوا.
(٣) اسم موضع.
(٤) حتى تنتهي عدتها.
(٥) في بيتها.
(٦) حديث صحيح، أخرجه النسائي (٦/ ١٩٩)، وصححه الألباني.

وقيل: إنها عاشت إلى الخلافة الراشدة، ثم أبحرت روحها إلى البشرى النبوية الميمونة[١].

(١) الإصابة (٧٦٥١)، أسد الغابة (٤٦٠١)، (٧٢٠٦)، دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٢٩٠، ٢٩١).

بَرِيرَة مولاة عائشة.. وبحبوحة الحرية!

هنا، وهنالك.. نظرات مرتابة، وهمسات لائمة: لماذا ظلم الإسلام المرأة؟

وهنا، وهنالك.. ألسنة طالما تحذلقت، وأفواه كثيرًا ما تشدقت: لماذا يحظى الرجل بمكانة في الإسلام لا تحظى بها المرأة؟

لنتساءل: هل تمتدُّ الأماني خلف الزمن الطويل لإجبار بَرِيْرَة على شيء أَبَى نبيُّ الرحمة ﷺ إجبارها عليه؟

لماذا رفضت بَرِيرَة شفاعته ﷺ رغم إبدائها الرضوخ لأمره من فورها؟ فإن كان أمرًا رضخت، وإن كانت شفاعة رفضت، ولا حاجة لها في مغيث؟! ولمَ لم يأمرها ﷺ رغم تصريحها بالطاعة إن أمر، ورغم شفقته الفياضة على قلب مغيث ورجولته؟

نشعر بمن يتساءلون: بَرِيرَة؟! ومغيث؟! ونفهم أن نسأل بدورنا: هل أتاكم نبأهما؟ اسمعوا وأنصفوا إن كنتم أهلاً للسمع والإنصاف.

بَرِيرَة مولاة عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً، هكذا عُـرِفت في كتب السيرة وأسفارها[1]، فلا نسب ولا حسب إلَّا نسبتها لأم المؤمنين عائشة، قال عروة بن الزبير أنَّ خالته عائشة أخبرته أن بَـرِيْـرَةَ جاءت تستعينها في كتابتها، ولم تكن قضت من كتابتها[2] شيئًا، فقالت لها: ارجعي

(١) جمع سِفر، وهو الكتاب، أو الكتاب الكبير.

(٢) المكاتبة بين العبد والسيد هي الاتفاق على مبلغ معين من المال إذا دفعه العبد صار حرًا.

إلى أهلك[١]، فإن أحبوا أن أقضي عنك كتابتك ويكون ولاؤك لي فعلت، فَذَكَرَتْ ذلك بَـرِيْـرَةُ لأهلها فأبوا وقالوا: إن شاءت أن تحتسب عليكِ فلتفعل ويكون ولاؤك لنا، فَذَكَرَتْ ذلك لرسول الله ﷺ فقال لها: «ابْـتَـاعي فأعتقي، فإنَّـما الولاء لمن أعتق».

ثم قام رسول الله ﷺ -أي على المنبر- فقال: «ما بال أناس يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق»[٢].

بَرِيرَة، كما ورد في شرح الحديث، اسم مشتق من البَـرِير؛ وهو ثمر شجر الأراك، وقيل: بَرِيرَة من البرِّ كما أن رحيمة من الرحمة.

المهم، كانت بَرِيرَة مولاة لبعض أهل المدينة، وكانت تخدم السيدة عائشة ﵂ قبل أن تبتاعها، ولما استعانت بَرِيرَة بعائشة، وأرادت عائشة أن تبتاعها اشترط سادتها أن تحتسب أم المؤمنين الأجر عند الله ويكون ولاؤها لهم.

شرط ترفضه الفطرة ويأباه المنطق على أي حال، فإذا طلبت أم المؤمنين عائشة أن يكون ولاء بَـرِيْـرَة لها إذا بذلت جميع مال المكاتبة فهل يحق لسادتها أن يشترطوا أن تبذل عائشة المال وتحتسبه، ويبقى ولاء بَـرِيْـرَة لهم؟!

وما كان ﷺ ليدع الأمر يمرُّ دون أن يُـقوِّمه، ويعلم أمته أن تشترط في معاملاتها ما أقره كتاب الله عز وجل، ومن اشترط ما ليس فيه فليس له وإن

(١) سادتك.

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٢٥٦١)، ومسلم (١٥٠٤).

اشترط مائة مرة، ويطلقها في سنته تالدة[١] خالدة: «شرط الله أحق وأوثق»، لينفع الله بها الإسلام والمسلمين كحكم صحيح، وقاعدة فقهية راسخة.

وابتاعت السيدة عائشة بَـرِيْــرَة وخَلُصَ لها ولاؤها، ثم لبَّت ﷺ دواعي راحة نفسها، وهواتف قناعتها، ومدفوعة بنصيحة المحرر الأعظم ﷺ التي تنتظم ثورته على الرق؛ «ابْتَاعي فأعتقي»، وبِخِلَّتيّ الجود، والبذل في سبيل الله المتأصلتين في نفسها أعتقتها.

وما أن سكنت بَرِيرَة من لهاث الرق، وسعار العبودية، واستقرت في بحبوحة الحرية، وكرامتها حتى أحست بدفعات من المشاعر تجذبها بقوة إلى الرغبة في كمال الحرية تسري في أغوارها، وتملك عليها كل أمرها، وتزيح عن صدرها أستارًا من الهم نسجتها سنوات الرق.

وكان زوجها مغيث[٢] عبدًا لا يذكره لسان إلَّا قارنًا اسمه بوصمة العبودية، آمرًا إياه بأداء عمل، حيث كان عبدًا لأبي أحمد بن جحش، ولا يملك من أمره شيئًا، فكيف يكون قَيِّمًا على أمرها؟ فهل تفارقه؟ خَيَّرها النبي ﷺ: «إذا أُعتقتِ فأنتِ أَوْلَى بأمركِ ما لم يطأكِ، وما أحبُّ أن تفعلي».

بيد أن بَـرِيْــرَة بذلت جهدها، وأنفقت وسعها في رد نفسها عن هذا الخاطر فلانت نفسها لها حينًا وعنفت بها أحابين، وطفقت الرغبة في مفارقته تتعاظم في قلبها، وتتمطَّى وتتمدد في نفسها حتى أن سطوتها[٣] لم تترك لها

(١) القديمة والأصيلة والعريقة، مفرد تالدات، وتوالِد.
(٢) ورد في أسد الغابة (٦٧٧٧) باسم مغيث، وفي الإصابة (١٠٩٣٤) باسم معتب.
(٣) سيطرتها على قلبها، وامتلاكها لأمرها.

خيارًا فاختارت فراقه، وكان مغيث يُحبّها، ويمشى في طرقات المدينة وهو يبكى خلفها، بيد أنَّ كلاً منهما كان يَـجِّدُ في السعي خلف ما يراه صوابًـا.

فهل طَـعُـمَتْ بَرِيرَة ﵂ مذاق الحرية فاستمرأته، ورامت إلى نيلها كاملة بأصلها وفرعها حتى لو أهدر هذا المذاق الذي ترجوه كاملًا غير منقوص شيئًـا من حنوِّها، وشفقتها، وسهولتها كامرأة؟

أم أن مغيثًـا أسرف عليها واشتط، فهَصَر[1] رغبتها فيه، ولما ملكت أمرها صرَّحت برغبتها الفوارة في فراقه؟

وهل كان مغيث يلتمس العزاء في مرآها، والسير خلفها باكيًا لأن فراقها فوق ما يطيق ويحتمل، ويدع فؤاده مشروخًا حتى لو أهدر ذلك شيئًـا من كرامته كرجل؟ الله أعلم.

ربما كانت بَرِيرَة ذات بصر وبصيرة، وتمدّ بصرها تواقًا إلى ما هو أبعد من حاضرها، وربما كان مغيث رقيقًا، حنونًا، مخلصًا ولا يرى، ولا يريد إلَّا ما يريده حاضره.

ولئن كانت هذه أو كانت تلك، فوجهتا الأمر سواء، المهم أنها آثرت على عشرته الفراق، وآثر هو عشرتها على الفراق، وكان لكل منهما هواتفه ودواعيه، وهل يستطيع حدسنا أن يشفع لأحدهما في هذا المشهد الذي يرويه عبدالله بن عباس ﵄، فيقول: إن زوج بَـرِيْـرَة كان عبدًا يُقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ

(١) كَسَر.

للعباس: «يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث لبَـرِيْــرَة، ومن بُغض بَرِيرَة مغيثاً؟!»، واستشفع مغيث إليها بالنبي فقال ﷺ لها: «لو رَاجَعْتِهِ؟، فقالت: يا رسول الله، تأمرني؟ فقال ﷺ: «إنَّما أنا أشفع»، قالت: لا حاجة لي فيه[١].

وربما كان فراقهما خيرًا لها وله من أن تحيا معه مبغضة له ولأيامه، وما النتيجة المتوقعة إلَّا تكاثف طبقات الهمِّ الثخينة حولهما، ولماذا إذًا شُرِّع الطلاق؟

ورضي الله عن بَـرِيْــرَة وأنالها في دار الكرامة عنده ما طمحت إليه، ورضي عن مغيث وزوَّجه من الحوار العين ما تقر به عينه.

وتمضى السنون يجذب بعضها بعضاً، ويجلس عبدالملك بن مروان على كرسي الخلافة ويحدث من حوله ربما في تأثر: كنت أجالس بَـرِيْــرَة بالمدينة فكانت تقول لي: يا عبدالملك، إنِّي أرى فيك خِصالًا، وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر، فإن وليته فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليُدْفَع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة[٢] من دم يريقه من مسلم بغير حق»[٣].

هذا الحديث ضعفه الهيثمي في المجمع، ولكن ابن حجر أقرَّه في فتح الباري في شرح حديث بَـرِيْــرَة الذي أسلفناه وقال هناك: كانت تخدم عائشة

(١) حديث صحيح البخاري (٥٢٨٣)، والنسائي في أدب القضاة (٢٧).

(٢) مفرد مَحَاجِم، وهي آلة تجرى بها عملية الحجامة، وهي مقوسة كالكأس توضع على الجلد لجذب الدم.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٠٥)، والهيثمي في المجمع (٧/ ٢٩٨)، وانظر: مسؤولية النساء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ص ٦١.

قبل أن تُـعْتَـق، وعاشت إلى خلافة معاوية، وتفرست في عبدالملك بن مروان أنه يلي الخلافة فبشرته بذلك وروى هو ذلك عنها.

يقرُّ الحافظ ابن حجر لها الحديث، ويقرُّ الحديث لها بأنها ترتفع إلى مستواه فهي:

أولًا: تتمتع بالفراسة فتدرك بمهارة خاصة بواطن الأمور بالظن الصائب، ولا يتمتع بتلكم المهارة إلَّا أُناس ذوو قدرات تندر وتعزّ.

وثانياً: أنها كانت نفسًا كبيرة، ارتفعت إلى مستوى واجباتها كصحابية جليلة، وبرزت بالنصيحة للكبار من حُكَّام هذه الأمة، مرشدة إياهم إلى أن إراقة ملء محجمة من دم مسلم بغير حق يدفع أحدهم عن باب الجنة.

وبقي على كل حاكم يحمل بين جنبيه نفسًا كبيرة أن ينتصح هامسًا: رضي الله عنك يا بَـرِيْــرَة، وجزاكِ عنى خيرًا، يا عتيقة عائشة[1].

(١) الإصابة (١٠٩٣٤)، وأسد الغابة (٦٧٧٧)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٠).

دُرَّة بنت عبد العُزَّى.. بنت عم النبي

لئن كان هناك من الأخبار ما يقع في النفوس وقعًا حلوًا، ويشدَّها إليها رباط من الود وثيق، وربما لا تدري سببًا لهذا الرابط غير حسٍّ مريح تبعثه في تعبها، فإن خبر دُرَّة بنت عبد العُـزَّى يأتي فَرَطًا لهذا النوع من الأخبار، وغير مرَّة يوجه إلينا هذا الحسُّ المريح الدعوة للوقوف مع دُرَّة بنت عبد العُزَّى فلبَّـينا دعوته هنا.

وإذا لم تصرح المصادر بعمر دُرَّة، وفي أي المراحل كانت تدرج على عهد النبي ﷺ، فإنها قد ألمحت إليه وأفادت بأنها كانت في مرحلة الشباب، نستوحي هذا الاستشفاف التاريخي من قول التاريخ:

أسلمت، وهاجرت إلى المدينة، وكانت عند الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، ومن المعروف أن الحارث كان شابًا على عهد النبي ﷺ، فَـنُـسَـلم بتوافقها معه في مرحلة الشباب لمَّا تألم ابن عمها النبي ﷺ لألمها أشد الألم، وارتقى منبره معاتبًا: «ما لي أوذى في أهلي..»، وأنزلها منزلتها منه قائلًا لها: «أنتِ مني وأنا منكِ».

وهنا أُحني رأسي، وأُفسح المجال لأبي هريرة رضي الله عنه ليقصَّ علينا خبرها الشائق رغم زفرات الشجن في كلماته، يقول رضي الله عنه: قَـدِمَـت دُرَّة بنت أبي لهب المدينة مهاجرة، فنزلت في دار رافع بن المعلى الزرقي، فقال لها نسوة جلسن إليها من بني رزيق: أنتِ ابنة أبي لهب الذي يقول الله فيه:﴿تَبَّتْ يَدَآ

أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المَسَد: ١] فما تُـغني عنكِ هجرتك؟

ونستأذن أبا هريرة في هذه المداخلة فنقول: أن يُـعَـيَّر الإنسان بأحد ذوي رحمه لخطاياه ومثالبه، أو جرائره ومعايبه[١]، فهذا أمر يصعب عليه تقبله، فما الظنُّ لو عُـيّر الإنسان بخطايا أبيه، بينما هو في سيره وسيرته لم تشبه شائبة؟

تمامًا كما حاولت بعض النسوة الغض من منزلة السيدة دُرَّة بنت عبد العُـزَّى المعروف بأبي لهب، لا لشيء إلا لكونها بنت أبي لهب، وأم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان والمعروفة بـ«حمالة الحطب»، ولم تختر هي أباها أو أمها، ولا قدرة لها على تصريف قدرها، فلمَ يجعلنها ضحيته؟!

أما أسلمت لله عز وجل قيادها، وهاجرت فيه سبحانه، وفي رسوله ﷺ؟ لماذا يثرن إحساسها بماضي أبيها المشين، ويُـشْعِـرنها بأنها إنسانة منكوبة؟!

لمّ لا يترفقن بها، وهي حديثة عهد بالهجرة؟ تركت في الله الأهل والديار، وضربت في الأرض العريضة إلى ديار غريبة، وعازها من يحنو عليها، ويدعها تشعر بأنها مقبولة وأنف إسراف أبيها في الكفر راغم.

لا ريب أن هذه الخَـوَاطِر جالت وصالت شجينة بخَـلَدِها[٢]، قاسية بخاطرها[٣]، لمَّا قلن لها ما قلنه وكأن الله عز وجل يحاسب الابن بجريرة أبيه، أو يأخذ الوالد بإثم والده! ومعاذ الله وحاشاه، وسبحانه حيث قال في أكثر من موضع كتابه الخالد: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزُّمَر: ٧]، قال ابن كثير في

(١) جمع جريرة، وهي الجناية، والذنب، والمعايب والمثالب بمعنى واحد، فالمثلبة هي العيب.
(٢) حزينة، والخَلَدُ: البالُ والنَّـفْسُ، والجمع: أخلاد.
(٣) ما يَـخْطـرُ بالقلب من أمر، أو رأي، أو معنى، والجمع خواطِرُ.

تفسير الآية: أي لا تحمل نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، بل كلٌّ مُطالب بأمر نفسه.

وأذهل دُرَّة ما سمعته! بيد أنها كانت شديدة الاعتزاز بشرفها وكرامتها، فلئن كان أبوها هو أبو لهب، فإن ابن عمها هو النبي ﷺ، وبلهجة أسيفة آذنته[١] ﷺ بخبر النسوة معها.

إنه حديث مرجفات[٢] لأنهن قلن ما قلن بمحض إرادتهن، ولكنهن بلا ريب كنَّ جاهلات بالأمر وحُكْمِه، والجاهل يُـعْـذَرُ بجهله.

ولم يكن ﷺ أقل من ابنة عمه حزنًا وتألمًا، وودَّ أن يرفع عن كاهلها الرقيق ما يؤلم نفسها ويؤسيها، فأنزلها منزلة خليقة[٣] برفعها إلى ذؤابة[٤] المنازل، أنزلها منزلتها منه، وكان ذلك قمينًا[٥] بدفع موجات متتالية من الراحة إلى أغوار نفسها.. كيف؟

لنسمع من أبي هريرة تتمة خبرها، قال ﷺ: فأتت دُرَّة النبي ﷺ، فذكرت له ما قلن لها، فسكَّنها، وقال: «اجلسي»، ثم صلى بالناس الظهر، وجلس على المنبر ساعة، ثم قال: «أيها الناس، ما لي أوذى في أهلي؟ فوالله إن شفاعتي لتنال بقرابتي حتى إن صداء، وحكم، وسلهم[٦] لتنالها يوم القيامة»[٧].

---

(١) كثيرة الحزن والرقة، وآذنته: أعلمته.

(٢) الخوض في الأخبار السيئة، وذكر الفتن بقصد إيقاع الناس في الاضطراب.

(٣) جديرة.

(٤) قمة، والذُّؤابة من كل شيء أعلاه.

(٥) حقيق وجدير.

(٦) صُـدَاء وحَـكَم: هي قبائل من أهل اليمن، وسلهم: في نسب اليمن، وذكرها ابن حجر في الإصابة «سلهب».

(٧) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد (٣١٦٥)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٥٩) برجال ثقات غير عبد الرحمن بن بشير الدمشقي.

وعادت دُرَّة مُـحـمَّلة القلب بأعظم وأكمل ما يُـحمَّل به قلب بشر من شكر وامتنان، وطفقت تتقلب في أعطاف المنزلة المرموقة التي خلعها عليها ابن عمها ﷺ، وتنهل من نعمائها، ولم يدع النبي ﷺ ابنة عمه وشأنها، وإنما كان يجدد محاولاته الناجحة في إكرامها وتكريمها، فيقر لها بمنزلتها منه كلما ألفى سانحة لذلك.

تحكي دُرَّة رضي الله عنها فتقول: كنت عند عائشة، فدخل النبي ﷺ، فقال «ائتوني بوضوء»، فابتدرت أنا وعائشة الكوز، فأخذته أنا فتوضأ ﷺ، فرفع بصره (أو طرفه) فقال: «أنتِ مني وأنا منكِ»[1].

ولم يتوقف التاريخ عند السيدة دُرَّة طويلًا، فقط تمهل عندها حتى سجل عنها ما أسلفناه، غير أنه سجل عنها أيضاً قوله: وتزوجها الحارث بن نوفل فولدت له عقبة، والوليد، وأبا مسلم.

وقال أيضًا: تزوجها زيد بن حارثة، ولعل ذلك قبل أن يتزوجها الحارث بن نوفل.

وأضاف التاريخ: وقيل: وتزوجها دحية بن خليفة الكلبيّ، وكانت تُطعم الناس.

ونقول قبل وداع السيدة درَّة: فأمَّـا زيد بن حارثة فيعرفه القاصي والداني، ويُـنْـزِله منزلته الصغير والكبير، وأمَّا الحارث بن نوفل، ودحية بن خليفة الكلبيّ، رضي الله عنهما، فلم ينالا من الذيوع والانتشار في ذاكرة التاريخ الإسلامي،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٤٣٢).

ونفوس المسلمين، لذا تعرضنا لهما في سلسلة «شباب تحت راية النبي ﷺ».

وكأننا بالسيدة دُرَّة رضي الله عنها كلما وقع في ذاكرتها تألُّم ابن عمها ﷺ من أجلها، ونهلها من نعماء المنزلة الشريفة التي خلعها عليها يوم وقف من أجلها موقفه الشريف وقد مدّت بصرها إلى نعماء الشفاعة الشريفة والنهل منها حتى أصعدها قدرها إلى هناك[1].

(١) مسند الإمام أحمد (٦/ ٤٣١)، طبقات ابن سعد (٨/ ٥٠)، طبقات خليفة (٣٣٠)، الإصابة (١١١٥٤)، أسد الغابة (٦٩٠٥).

الرُّبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ.. ابنة قاتل عبده

الرُّبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ بن عَفْرَاء بن حرام الأنصاريَّة النجاريَّة، أمها أم يزيد بنت قيس.

كانت لا تزال صبية غريرة لا تجارب لها بعد لمَّا أشرق نور الحق في المدينة الطيبة، وما لبث أن أشرق في نفسها وسبحت في أنواره، دفعها نحوه راحة لم تكن تألفها، وحذوها حذو أبيها وأمها، بل حذو الكثرة الكاثرة من قومها التي تغشتها نفس الراحة، واندفعت نحو الحق والنور قانعة راضية.

وأحبَّ الأنصار النبي ﷺ حبًا لا يُضَارَع بحبٍ آخر، وأحكمت الرغبة في الإهداء إليه ﷺ قبضتها على سخاء أنفسهم، فجعلوا يتحرَّونه بهداياهم، ويؤثرونه على أنفسهم، فكان ما يأخذ ﷺ منهم أحب إليهم مما يبقي لهم.

وكانت الربيع بنت معوذ تحمل هدايا أبيها إلى النبي ﷺ، وكان ﷺ أجود الناس نفسًا، وما أتحفه أحد بهديَّة إلا وردَّها على أكمل وأجمل ما يكون رد الجميل، تقول ﵂: بعثني معوذ بن عفراء بصاع من رطب عليه قثاء إلى رسول الله ﷺ وكان يحب القثاء، وكانت حِلْيَة قد قدمت من البحرين، فأعطاني ﷺ ملء كفى حُليًا أو ذهبًا، وقال: «تحلي بهذا».

وفي يوم «بدر»، تراءى الجمعان، جمع الله وجمع الشيطان، وكان أبو جهل يقطع الأرض أمام جيشه على صهوة جَوَادِهِ الذنوب[1]، وقد انتفخ

(١) الذيل، والجواد الذنوب هو كثيف شعر الذيل.

سحره[١]، وبدا ضخمًا عملاقًـا، حتى قال أحد المشركين مزهوًا بأبي جهل: أبو الحكم لا يَخْلُص إليه.

وحطت «بدر» أوزارها وأعلنت نتائجها أن معوَّذ بن عفراء لم يَـنْفَسُ[٢] على الله بنفسه وبذلها فيه قريرًا وصعد في موكب الشهداء، يومذاك قال النبي ﷺ: «من ينظر ماذا صنع أبو جهل؟»، فقال عبدالله بن مسعود: أنا يا رسول الله.

فانطلق فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، قال: فقتلته، ثم أتيت النبي ﷺ فقلت: قتلت أبا جهل، فقال: «آلله الذي لا إله إلَّا هو؟»، فاستحلفني ثلاث مرات، ثم قام معي إليهم فدعا عليهم[٣].

وفي رواية: إن الذي قتل أبا جهل مع معاذ بن عمرو بن الجموح هو معاذ بن عفراء وليس معوذ بن عفراء، ويجوز أن يكون الاثنان قد شاركا معاذاً بن عمرو بن الجموح في قتله.

قال ابن عبدالبر في معوذ: كان ممن قتل أبا جهل ثم قاتل بعد ذلك حتى استشهد.

وقال ابن إسحاق في السيرة: قال معاذ بن عمرو بن الجموح رضي الله عنه: سمعت القوم وأبو جهل مثل الحرجة[٤] وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما

(١) الرئة، والمقصود انتفخ صدره غرورًا.
(٢) يضن ويبخل.
(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٩٦٢) واللفظ له، ومسلم (١٨٠٠).
(٤) الشجر الملتف، أو شجرة لا يوصل إليها، وشبه رماح المشركين التي كانت حول أبى جهل لتحفظه بالشجرة الملتفة.

سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلمَّا أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي، فلمَّـا آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مرَّ بأبي جهل وهو عقير[١] معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل.

وبعد يوم «بدر» أقبلت الربيع بنت معوذ على النبي ﷺ وعلى دعوته، لكأنها قرت على قرار ألَّا يفوتها منها خير، فجعلت تجاهد في سبيل الله راغبة حريصة، وتشهد معه ﷺ غزواته، ومشاهده كلما ألفت إلى شهودها سبيلاً، تقول رضي الله عنها: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، ونسقى القوم ونخدمهم، ونردُّ القتلى والجرحى إلى المدينة[٢].

وفي بيعة الرضوان، كانت رضي الله عنها هناك تحت الشجرة تبايع النبي ﷺ مع المبايعين والمبايعات، فظفرت أمجد الظفر، وغنمت أنبل الغنم لما بشرت برضوان الله تعالى مع المؤمنين في ذاك اليوم الأغر؛ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفَتْح: ١٨].

وعاشت بلا ريب تردد تلكم البشرى الربانية الميمونة في خلدها ترديدًا متصلاً.

وأقبل النبي ﷺ على الرُّبَيِّع وآلها، يتعدهم بالزيارة، والسؤال، والصلة،

(١) راقد لا يستطيع أن يتحرك.
(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٣٥٥).

وهيأ لها القرب منه ﷺ تلقى الكثير من العلم عنه، وكان كبار الصحابة يسألونها فيما رأته منه، وتلقته عنه ﷺ.

سألها عبدالله بن عباس رضي الله عنهما عن صفة وضوئه ﷺ، فقالت رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يأتينا، فيقول: «اسكبي لي وضوءًا»[١].

وذكرت وضوء النبي ﷺ قائلة: فغسل كفيه ثلاثاً، ووضأ وجهه ثلاثاً، ومضمض واستنشق مرة، ووضأ يده ثلاثاً، ومسح برأسه مرتين يبدأ بمؤخر رأسه ثم بمقدمه، وبأذنيه كلتيهما ظهورهما وبطونهما، ووضأ رجليه ثلاثًا ثلاثًا.

ثم إن الرُّبَيِّع كانت تختلف إلى عائشة رضي الله عنها، متطلعة إلى أخذ العلم عنها قدر ما تتيح لها استطاعتها.

ولما تزوجت الرُّبَيِّع زارها النبي ﷺ صبيحة عرسها مهنئًا، ومُدْخِلًا السرور على نفسها الحساسة، ومكرمًا لأهلها، ضاربًا أروع المثل في الوفاء لأصحابه لا سيما الشهداء منهم، قال خالد بن ذَكْوَان: دخلنا على الرُّبَيِّع بنت مُعَوَّذ فقالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ في يوم عرسي، فقعد على موضع فراشي هذا وعندنا جاريتان تضربان بدف، وتندبان آبائي الذين قتلوا في «بدر»، وقالتا فيما تقولان: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال ﷺ: «أمَّا هذا فلا تقولاه»[٢]، أو قال: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين»[٣].

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١٢٦)، والترمذي (٣٣)، وصححه الألباني.
(٢) حديث صحيح. أخرجه ابن سعد (٨/ ٤٤٧)، والبخاري (١٨٥٩).
(٣) حديث صحيح. أخرجه البخاري (٣٧٧٩)، والترمذي (١٠٩٠).

أنكر ﷺ عليهما وصفهما له بعلم الغيب، لأنها صفة من صفات الله عز وجل، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النَّمْل: ٦٥]، وما كان ﷺ يخبر بغيب، إلَّا ما أطلعه الله عليه، قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجِن: ٢٦-٢٧].

سؤال سوف يروعك، كما روع الرُّبَيِّع بنت مُعَوَّذ حين سُئِلَتْهُ، سؤال ما تستشعره إلَّا وتستشعر معه من الغيظ المرير ما يكفي لإصابتك بالكمد، وإليك الحدث الذي ينتظم السؤال.

كانت أسماء بنت مخربة تبيع العطر بالمدينة وهي أم عياش وعبدالله ابني أبي ربيعة المخزومين، فدخلت أسماء هذه على الرُّبَيِّع ومعها عطرها في نسوة، فسألتها فانتسبت[1] فقالت لها أسماء: أنت بنت قاتل سيده؟! تعني أبا جهل.

بيد أن الرُّبَيِّعَ كانت شديدة الاعتزاز بنفسها ونسبها، وارتجت نفسها الأبيَّة لسؤال بنت مخربة، فكيف يكون أبوها الصورة الرائعة للفرع الأزهر الكريم الذي نبت في دوحة زاهية زاكية، عبدًا لأبي جهل الذي كان مع الجهل وكان الجهل معه يدور؟!

كيف يكون أبوها الذي بذل نفسه في «بدر» بذل السماح، وَزُفَّ إلى ربه عزَّ وجلَّ شهيدًا مجيدًا عبدًا لأبي جهل الذي ارتجت الدنيا مسرورة لرحيله عنها، وارتجت جهنم محبورة لِـوُرودِهِ إليها؟!

(١) سألتها عن اسمها فانتسبت لأبيها قائلة: الرُّبَيِّع بنت مُعَـوِّذ بن عَفْرَاء.

فأجابتها في لهجة حادة تتضوع منها طيوب العزة والشرف: بل أنا ابنة قاتل عبده.

فقالت أسماء بنت مخربة مغيظة: حرام عليَّ أن أبيعكِ من عطري شيئًا.

فردت الربيع وما زالت لهجتها بين حدتها وعزتها: بل حرام عليَّ أن أشتري منه شيئًا، فما رأيت لعطر نتنًا غير عطرك.

قالت الربيع: ثم قمت، وإنَّما قلت ذلك لأغيظها.

وصعد النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وألمَّتْ[١] بنفس الربيع فنون من مرارة الحزن، وأنواع وجعه.

ومرَّت الأيام بها وكرَّت السنون، وطفق الشوق يعمدها إلى أيام الحبيب ﷺ ويقصدها قصدها[٢] لكأنها تعيش في زمنه، ولا تشعر بحركة الأيام، أيام كانت الأرض تَشْرُف بوطئه ﷺ لها، وكان بقاؤه في نفسها وعالمها جليًا لا يعادله جلاء غيره، وربما دلل على هاتيك المعاني وصفها له ﷺ لما سئلت عن وصفه، وكان وصفًا مجسدًا لأثره الملموس على الأرض، ومبيناً لفعله في الدنيا، قال لها أبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر: صفي لي رسول الله ﷺ، فقالت رضي الله عنها: «يا بني، لو رأيته لرأيت الشمس طالعة»[٣].

جاء في الأثر: «خير الكلام ما قلَّ ودلَّ»، ولا يقدر على خير الكلام الدال على المعنى رغم قلته إلَّا ذوو الفصاحة والبيان، وأصحاب البلاغة، وحسن

(١) نزلت.
(٢) يتجه بها نحوها.
(٣) دلائل النبوة للبيهقي (١/ ٢٠٠).

المقال، وقيل: «أفضل القول ما يُعبَّر عن معني كثير بوجيز الألفاظ».

وهنا، لا يملك المرء إلَّا الوقوف طويلًا أمام عبارتها معجبًا ببلاغتها، متعجبًا من بيانها، مأخوذًا من قوة دَلِّهَا[١] مع قلة كلماتها: يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة.

وكأننا بها وقد قالت قولها، وشرد بها ذهنها عاجًلا إلى أيامه الشريفة ﷺ فبدت مزدهرة كعهدها بها، واحتلت دموعها مكانها في مقلتيها، وراحت تنساب في هدوء، وتُـنَـفَّس جهدها عن فؤادها التواق إليه ﷺ.

وبين العبادة وطلب العلم طفقت الرُّبَيِّعُ تُـزْجي[٢] أوقاتها، وأيامها ضاربة مثالًا رائعًا للمرأة العالمة، التي يُـقدَّرُها المسلمون قدْرُها، ويكبرون علمها، فكان عدد كبير من الصحابة والتابعين يأخذون عنها ما تعرفه من أحكام الشريعة، لما عرفوه من مكانتها عند النبي ﷺ وصحبتها له، وكذا ترددها على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأخذها من علمها وأدبها، حتى غدت من راويات الحديث الشريف.

حيث روت عدة أحاديث، ولها في الصحيحين حديثًا اتفق عليه الشيخان، وروى عنها عدد كبير من أهل المدينة، قال الإمام الذهبي: حدث عنها: أبو سلمة بن عبدالرحمن، وسليمان بن يسار، وعبادة بن الوليد بن عبادة، وعمرو بن شعيب، وخالد بن ذكوان، وعبدالله بن محمد بن عقيل، وآخرون.

أجل، ظلت السيدة على حال تتضوع منه طيوب العبادة، وأريج العلم،

(١) ما تدل عليه من معنى.
(٢) تدفع وتُمْضي.

ولمَّا دخلت الدنيا في العام الخامس والأربعين في زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وقيل: بل في خلافة عبدالملك بن مروان، هبطت شمس العمر خلف الأفق، وفي ترفق وأناة راحت تهتف بالرُبَيِّع أغاريد ملائكية، أما بشَّرها النبي ﷺ بالجنة مع المبايعين والمبايعات يوم الحديبية، وبقيت أصداء بشارته: «لا يدخل النار من أصحاب الشجرة أحد..»[1]، تتردد في أجواء عوالمهم، مُخَلِّفة عطرها، وشذاها؟

أجل، وستبقى الرُبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ ماثلة بين شخوص التاريخ الإسلامي العظيم، ولن يغضّ طرفه عن كلماتها في وصفه ﷺ، سيظل يرنو إلى ذكراها، حامدًا بلاغتها التي لا يحوزها إلَّا من دأب على غسل فكره، وصقل ذهنه من روافد الأدب والدين[2].

(١) حديث صحيح. أخرجه مسلم (٢٤٩٦).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٦٣)، الإصابة (٨١٨٠) (١١١٧٢)، الاستيعاب (٢٥٠٢) (٣٣٨٢)، المجد (٤٣٠)، أسد الغابة (٦٩١٨)، سير أعلام النبلاء الذهبي (١٩٨١٣)، نساء مبشرات بالجنة، ص ١٢٠.

بُهَيَّةُ بنت عبدالله.. وبركة دعاء النبي ﷺ في أولادها

تمهلت عند خبرها برهة، راعني رغم قِصَره، أن العين تبلغ مداه بنظرة واحدة، ولكن فيه من الغناء ما نحن أحوج إليه.

كانت فتاة مباركة في يد أبيها، أو لنقل على أعتاب طور الفتيات لما وفد أبوها على النبي ﷺ ومدَّ يمينه مبايعاً، وهكذا قُـدِّرَ لبُهيَّة بنت عبدالله الْبَكْرِيَّة[١] أن تبايع النبي ﷺ مع المبايعين والمبايعات وقتذاك.

نظرت حولها فرأت المشهد الذي ترك في نفسها أثراً وحديثاً، رأت النبي ﷺ يبايع الرجال ويصافحهم، ويبايع النساء ولا يصافحهن، وطفقت الأيام في دورتها تدور، وجعل الزمن لا يكفّ عن الكرور، وهي ترتدي مراحل الحياة الطويلة الممتدة مرحلة في إثر مرحلة، ولكنها ارتبطت بذاك اليوم الأغرّ برباط من الود وثيق، وكثيراً ما كان يتغشى ذاكرتها في رفق، فتقول مغبوطة منتشية: فبايع النبي ﷺ الرجال وصافحهم، وبايع النساء ولم يصافحهن، فنظر إليَّ فدعاني ومسح برأسي ودعا لي ولولدي، وقال من حدثته[٢]: فَوَلدها ستون ولداً؛ أربعون رجلاً، وعشرون امرأة، فاستشهد منهم عشرون[٣].

لنقف أولاً مع كلماتها التي تنتظم شطر الخبر الأول، فكم يبدو لنا

(١) هي بهية بنت عبدالله البكرية من بكر بن وائل.
(٢) ذكر الحافظ بن حجر في الإصابة (١٠٩٤٩) أنه حبة بن شماخ.
(٣) يقصد ستين ولداً من أولادها وأحفادها.

المشهد رائعاً! وقد سطعت خلفه وأمامه أشعة السلوك النبوي الشريف مُزيِّنة لنا العيش فيه ومعه، وكلما تجدد المشهد في الأذهان تجدد معه ضياؤه، وشعَّ في النفوس أثره.

إن النبي العفيف ﷺ يأبى على النساء مصافحتهن، ولا ريب أنهن جميعاً كـنَّ يطمحن إلى مصافحته، ولمَ لا؟ إنه النبي ﷺ، حتى قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ لا يصافح النساء(١).

ولئن قال ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وكِّلَ به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، إلَّا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»(٢).

وفي حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «أغرتِ؟»، قالت: وما لمثلي لا تَـغَـار على مثلك يا رسول الله؟! فقال ﷺ: «لقد جاءكِ شيطانكِ»، قالت رضي الله عنها: أو معي شيطان؟! قال ﷺ: «ليس أحد إلا ومعه شيطان»، قالت رضي الله عنها: ومعك؟ قال ﷺ: «نعم، ولكن الله أعانني عليه فأسلم»(٣).

ويصح لنا أن نتساءل: هل فينا من أعانه الله عز وجل على شيطانه فأسلم؟ هل سمعنا عمن يأمره شيطانه بخير غيره ﷺ؟ فلئن كان الله عز وجل أعانه على شيطانه فأسلم، ولئن كان شيطانه ﷺ لا يأمره إلَّا بخير، ورغماً عن هذا وذاك لم يكن يصافح النساء، ألا يطل هنا من بين السطور والأفكار سؤال

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣)، وابن سعد (١/ ٨)، والخطيب البغدادي (٥/ ٢١٦) في تاريخ بغداد بلفظه. (٥) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٨/ ١٣٩).
(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٨/ ١٣٩).
(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٥/ ٢١٧٤).

يهزنا بعنف، ويهتف فينا بقوة: ألسنا، إذاً، بعدم مصافحة النساء أولى؟! فلماذا يخرج علينا من يبيح مصافحة النساء مُدَّعياً بأن عدم مصافحتهن كانت خاصية للنبي ﷺ؟!

ليلحق به سؤال آخر: ترى، لماذا تصافح زوجة غيرك، ويُصافح غيرك زوجتك؟!

ولنقف الآن مع من حدثته، الذي ينتظم شطر الخبر الثاني، قال: فولدها ستون ولدًا -من أولادها وأحفادها- أربعون رجلاً، وعشرون امرأة، فاستشهد منهم عشرون.

من اليقين أن بهيَّة وأباها استقبلا الدعوة النبويَّة ومسحة كفه الشريف باستبشار وجذل[1]، وأنف صِغَر سنها راغم، وأغلب اليقين أن الدعوة الشريفة حوَّلت مشاعر بهيَّة من أيامها الراحلة إلى أيامها الوافدة، حيث أدركت بمشاعرها الغضَّة أن بينهما من الفارق المحسوس ما يلاحظ، وعاشت مترعة[2] الذهن؛ بمعنى أنه لا يستحق مشاعر الشكر والثناء على ما أُسدِي لها كما يستحق النبي الحبيب ﷺ، حيث تقبل الله عز وجل دعوته ﷺ من أجلها، وألفتها واقعاً جميلاً تحياه، فولدها ستون ولداً؛ أربعون رجلاً، وعشرون امرأة.

ولئن غنمت السيدة بهيَّة بنت عبدالله الدنيا بوقوع البركة فيها وفي ولدها، وولد ولدها فقد ظفرت أيضاً بجنات ربها حيث زُفَّ من أولادها وأحفادها موكب من الشهداء يُقدر بعشرين شهيداً، ولسوف تلقى الله عز وجل يوم

(١) أي: ببهجة وابتهاج.
(٢) مملوءة.

القيامة وجميعهم في ميزانها، ولئن كان هذا شعور السيدة بهية بنت عبدالله المفعم بالغبطة والسرور لأثر دعوة النبي ﷺ في دنياها، ويقينها بما هو أعظم منهما في أُخراها، فلمَ لا نغتبط ونُسرُّ بدعاء النبي ﷺ لنا؟!

وربما لحقني سائل لاهثاً أو هادئاً، يسأل: أو قد دعا النبي ﷺ لنا؟!

فأجيب وملء فمي وفؤادي غبطة وسرور: نعم، واضرب صفحاً عن كلماتي، وتأدب وأحسن الإنصات لأمك عائشة رضي الله عنها إنها تجيبك: لمَّا رأيتُ من النَّبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم طيب نفسٍ قلتُ: يا رسولَ اللَّه، ادعُ اللَّه لي، فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعائشة ما تقدَّم من ذنبِها وما تأَخَّر، ما أسرَّتْ وما أعلنت»، فضحكت عائشةُ حتَّى سقط رأسُها في حجرها من الضَّحك، فقال لها رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: «أَيسرُّكِ دُعائي؟»، فقالت: وما لي لا يسُرُّني دُعاؤكَ؟! فقال صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: «واللَّه إِنَّها لدعَائِي لأُمَّتي في كل صلاة»[1].

وهنا عقب بعض أهل العلم قائلين: وهذه المحبّة تزداد منه ﷺ كلّما ازداد العبد طاعة وخلقاً[2].



(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٢٦٨).

(٢) الإصابة (١٠٩٤٩)، الاستيعاب (٣٣٠٧)، أسد الغابة (٦٧٨٥).

أُمَامَةُ بنت أبي العاص.. حفيدة الرسول الأكرم

في يوم «بدر» التقى الْجَمْعَان؛ جَمْعُ الله، وجمع الشيطان، يومذاك كانت زينب بنت النبي ﷺ بمكة تَصْبر صبر العاجزين، وَتَجْتَر مشاعر الخائفين المفزوعين، وتَلوذ بالله منتظرة عمَّا تنفرج الأمور.

ففي الفريق الأول الذي خرج طالباً حقه في تبليغ دعوة ربه يقف أبوها النبي ﷺ، وفي الفريق الثاني الذي خرج طالباً عزة زائفة يقف زوجها أبو العاص بن الربيع، وانفرجت الأمور عمَّا تُحب وتطمح، انتصر أبوها ﷺ وأُسِرَ زوجها، ما أجمل لو آب إليها مهزوماً، ولكن لا بأس بالأَسْرِ طالما بَقْيَ حياً ولم تُرَمل هي أو يُيَتم وَلَدَاهَا عليّ، وأُمَامَة، وسوف تفتديه بأعَزِّ ما تملك.

وأرسلت مع أخيه عمرو بن الربيع بقلادتها الأثيرة على نفسها التي كانت هدية أمها خديجة رضي الله عنها يوم زفافها إلى أبي العاص بن الربيع ابن أختها هالة بنت خويلد[1]، وأدنى ﷺ صهره منه وأخذ عليه أن يُخَلِّي سبيل زينب ويَدَعَها تُهاجر إلى المدينة، وأَبْدَى أبو العاص موافقته مقتنعاً، ثم يَمَّمَ شطر مكة، وفي لهجة شفوقة حانية قال لزينب: إن أباكِ طلب مني أن أُرسلكِ إليه لأن الإسلام فرَّقَ بيني وبينكِ، وقد تَعَهَدْتُ له أن أدعكِ تسيرين إليه، وما كنت لأنْكُث عهدي فتجهزي للسفر.

(١) راجع: قصة الفداء كاملة في قصة زينب رضي الله عنها، كتاب «فلذات كبد النبي ﷺ»، للمؤلف/ ط. دار التوفيقية للتراث بالقاهرة.

وقال النبي ﷺ لزيد بن حارثة: «ألا تنطلق فتجيئني بزينب؟»[١]، فقال رضي الله عنه: بلى يا رسول الله.

وخرجت زينب إلى زيد بن حارثة مع حميها كنانة بن الربيع، ولم تُفِدْ المصادر التي بين أيدينا بحال طفلي زينب رضي الله عنهما؛ عليّ، وأُمَامَة، وقتذاك، وكل ما جاء في مولد أُمَامَة أنها ولِدَتْ على عهد النبي ﷺ.

ورفع التاريخ قلمه عن زينب، وأبي العاص، قرابة ست سنين، رغم أنه كان كثير الوقوف في تلك الفترة المُتْرَعَة[٢] بالأحداث الجسيمة، وإذا كَثُرَ وقوفه أو حتى تَمهَّل كَثُرَ تسجيله، بيد أن زينب رضي الله عنها كانت تؤثر اللون الهادئ من الحياة فَلَزَمتْهُ حتى في عبادتها وتربية وَلَديْهَا.

كما أننا لم نسمع خبراً عن أبي العاص أو نلمح له طيفاً ولو باهتاً بين الأحداث سوى أنه لمَّا كان قافلاً إلى مكة من تجارة في الشام، ومعه بعيره التي بلغت مائة بعير، ورجاله الذين زادوا عن المائة والسبعين رجلاً، برزت له سرية من سرايا المسلمين بالقرب من المدينة، فأخذت العير وأسرت الرجال، ولكن أبا العاص أفلت منها فلم تظفر به، فلمَّا أرخى الليل استتر أبو العاص بظلامه ودخل المدينة، واستجار بزينب فأجارته، وخرج ﷺ لصلاة الفجر، فهتفت زينب من صفوف النساء: أيها الناس، إنا زينب بنت محمد، وقد أجرت أبا العاص فأجيروه، فأجاره ﷺ والمسلمون وردُّوا عليه ماله.

فعاد إلى مكة بالإبل وما عليها، وأدى لكل ذي حق حقه، ثم قال: يا

(١) حديث حسن، أخرجه الحاكم (٤/ ٤٣)، والبيهقي (٣/ ١٥٦) في الدلائل.
(٢) المليئة.

معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه، فقالوا: لا وجزيت خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً، فقال: أما وإني قد وفيت لكم حقوقكم، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ووالله ما منعني من الإسلام عند محمد في المدينة إلَّا خوفي أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلمَّا أداها الله إليكم وفرغت ذمتي منها أسلمت، ثم قَدِمَ المدينة على النبي ﷺ مسلماً فأكرم وفادته، وردَّ عليه زوجته، وكان ﷺ يقول عنه: «حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»[1].

ولم تمتد هناءة الأسرة الصغيرة سوى عام واحد، ففي مستهل سنة ٨هـ أَذِنَ القدر بفراقٍ لا تلاقي بعده إلَّا في الفردوس الأعلى حين لبت السيدة زينب رضي الله عنها نداء ربها راضية مرضيَّة، وهنا فحسب بدأ التاريخ يسجل عن أُمَامَة بنت أبي العاص، لا نعرف كم كان عمرها بالتحديد، لكنها أَلْفَتْ[2] في جَدِّها النبي ﷺ ما افتقدته في رحيل أمها، فقد كان ﷺ يتعهدها بالحب والحنو، ويُدَلِّلُها ويَحْمِلُهَا حتى في صلاته.

يقول أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه: إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ كانَ يُصَلِّي وهو حَامِلٌ أُمَامَةَ بنْتَ زَيْنَبَ بنْتِ رَسولِ اللهِ ﷺ وأَبِي العَاصِ بنِ الرَّبِيعِ، فَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا وإذَا سَجَدَ وضَعَهَا[3]، وللعلماء في موقفه الشريف مع حفيدته أُمَامَة عدة أقوال، فعن مالك أن ذلك للضرورة، حيث لم يجد من يكفيه أمرها،

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٣٥٢٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٣٨).
(٢) وجدت.
(٣) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم (٥٤٣).

وقال بعض أصحابه: لأنه لو تركها لبكت وشغلت سره في صلاته أكثر من شغله بحملها، وفرَّق بعض أصحابه بين الفريضة والنافلة، وقال الإمام النووي في شرح الحديث: وفي الحديث مشروعيَّةُ حَملِ الطفلِ أثناء الصلاة.

ووجدت المدينة في أُمَامة بنت أبي العاص بعض العزاء عن أمها فكانت تَهُشّ[١] لها من أقصاها إلى أقصاها[٢]، ولمَ لا؟ وهي تراه ﷺ يحتفي بها ويتابعها ببصر سعيد، بل إنه ﷺ كان يعتبرها أحب أهله إليه.

تقول عائشة رضي الله عنها: أُهْدِي لرسول الله ﷺ قلادة من جَزْع[٣] ملمعة بالذهب ونساؤه مجتمعات في بيت كلهن، وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع جارية تلعب في جانب البيت بالتراب، فقال رسول الله ﷺ: «كيف تَرَيْنَ هذه؟»، فنظرن إليها فقلن: يا رسول الله، ما رأينا أحسن من هذه قط ولا أعجب! فقال ﷺ: «ارْدُدْنهَا إليَّ»، فلما أخذها قال: «والله لأضعنَّها في رقبة أحب أهل البيت إليَّ»، فأقبل بها ﷺ حتى وضعها في رقبة أمامة بنت أبي العاص، فَسُرِّي عنَّا[٤].

ودليل آخر على شدة تعلقه ﷺ بأمامة وكثرة حُنوِهِ عليها، تَسُوقه السيدة عائشة فتقول: أَهْدى النجاشي إلى رسول الله ﷺ حلقة فيها خاتم ذهب فيه فصٌّ حبشيٌّ، فأخذه رسول الله ﷺ بعود وإنه لمعرض عنه أو ببعض أصابعه، ثم دعا بابنة ابنته أمامة أبي العاص، فقال: «تَحلِّي بهذا يا بنية»[٥].

---

(١) ينشرح صدر الناس سروراً بها.

(٢) من شمالها لجنوبها ومن شرقها لغربها.

(٣) عقد من خرز يماني.

(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب المناقب، باب مناقب أُمَامَة بنت زينب رضي الله عنها (١٥٣٩١).

(٥) حديث حسن، أخرجه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٩٥٥).

وربما يشي هذا الحديث بأن أُمَامَة قد تقدمت في السن شيئاً لقول عائشة بأنه ﷺ دعا أمامة وطلب منها أن تتحلى بالخاتم، أما في الحديث الذي قبله أخبرتنا أن أُمَامَة كانت تلعب في جانب البيت بالتراب، وأن النبي ﷺ هو الذي قَلَّدَهَا القلادة.

وتوالت الفوادحُ[1] التي هزَّت نفس أُمَامَةِ الصغيرة وعالمها، وجعلت تسعى بها بين أوجاع الأحزان ومرارتها، فبعد رحيل أمها لم تتقلب في أَعْطَاف الكنف[2] الشريف سوى قرابة سنوات ثلاث، وصعد جدها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وما كرَّ الزمن إلَّا ستة أشهر تقريباً حتى لحقت خالتها الوحيدة فاطمة الزهراء بأبيها سنه ١١هـ، وارتفعت مرتفقة إلى أُخراها مُشوَّقة إلى أبيها ﷺ، وحُملت بليل بعد أن أوصت عليّاً رضي الله عنه بأن يتزوج من أمامة بمجرد أن يدركها طور الفتيات.

وعن قرب تعود الفوادح إلى التتابع في حياة أُمَامَة، فبعد عام تقريباً من رحيل الزهراء رضي الله عنها يتسامى أبوها أبو العاص عن دنياه ويرتفع إلى أخراه مشوقاً إلى حميه النبي ﷺ وزوجته الحبيبة زينب رضي الله عنها، بعد أن أوصى الزبير بن العوام بأمامة وعهد بها إليه؛ لأن أخاها علياً كان قد توفي وقد ناهز الاحتلام في حياة جدها النبي ﷺ، وما أن أدركت أمامة طور النساء حتى سارع عليّ رضي الله عنه إلى الوصي عليها الزبير رضي الله عنه الذي زوّجها منه عملاً بوصية الزهراء رضي الله عنها.

وفي دار عليٍّ مرت الحياة بأمامة هادئة، بيد أنها كانت تؤسر اللون الهادئ

(١) جمع فادِحَةٌ، وهي النَازِلة أو المُصيبة.
(٢) أَعْطَافُ: جمع عِطف وهو الجانب، والكَنَفُ: الرعاية والحفظ.

منها ميراثاً من أمها الراحلة، رغم حديثنا بأنها كانت هناك بجوار زوجها تُعينه على أحداث حياته الجسام وتقاسمه أعباءها لا سيما لما تولَّى أمر المسلمين وخاض حروب الفتنة.

كانت أُمَامَة تفعل كل ذلك في هدوء وحب وقناعة، ولم تهدأ بها الفوادح طويلاً وما لبثت أن عادت تفعم نفسها الطيبة بأوجاعها وتُذِيقها مرارة التَّرَمل وانكساره بعد أن أشبعتها من مرارة اليتم وقهره لما سقط أمير المؤمنين جريحاً ورحل عنها شهيداً مجيداً.

وكان ﷺ لما أدرك أنها النهاية وأنه لم يعد له من حياته سوى فضلة من أنفاس، قد فكَّر في أمرِ أُمَامَة، ولم يدعها وشأنها، أو يدع شأنها لها، وإنما حذراً عليها واكتراثاً بأمرها أمر المُغِيرَة بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب أن يتزوجها بعده خوفاً من أن يتزوجها معاوية بن أبي سفيان، وقال ﷺ لأُمَامَة: إني لا آمن أن يخطبك هذا بعد موتي -يعني معاوية- فإن كان لك في الرجال حاجة فقد رضيت لك المُغِيرَة بن نوفل عشيراً.

وفي دعة وحبور صعدت روح الإمام إلى بارئها بعد شوق امْتَدَّ بها واشْتَدَّ، وروَّع الحدث أُمَامَة أشد الروع وأقساه، وطفقت تطوف بجثمان الشهيد المسجَّى في مشهد ترتج منه القلوب حزناً وتأثراً، حتى أنشدت أم هيثم النخعيَّة في مشهدها ذاك محزونة باكية:

أَشَـــابَ ذَوَائِبـــي وأذَلَّ رُكْني أُمَـامَـة حـين فـارقت القَـرِينَا[1]

(١) أَشَابَ: شيَّبَ، والذَّوَائِبُ: جمع ذؤبة وذؤابة، وهي الشعر المُتَدَلِّي من الضفيرة عند النساء، وربما تقصد بأذلّ رُكْني أركان جسدي وقوتي، لأن رُكْن الإنسان قوته وشدته، وربما أرادت وأذلّ عزِّي

تُطِيفُ بـــه لحاجتها إليه فلمَّا اسْتَيْأَسَتْ رَفَعَتْ رَنِينَا[١]

فلما انقضت عِدَّتها كتب معاوية بن أبي سفيان ﷺ إلى مروان بن الحكم والي المدينة يأمره أن يخطبها عليه، وبذل لها مائة ألف دينار، فأرسلت إلى المُغِيرَة: إن هذا قد أرسل يخطبني، فإن كان لك بنا حاجة فأقبِل، فخطبها المُغِيرَة إلى الحسن بن علي ﷺ فزوَّجها منه[٢]، وكان المُغِيرَةُ محباً لعمه عليّ وشهد معه حربه ضد معاوية رضي الله عنهم جميعاً.

وولدت له أُمَامَة ولده يحيى، وبه كان يُكنَّى (وقال ابن سعد في طبقاته: إن أُمَامَة بنت أبي العاص قالت للمُغِيرة بن نوفل: إن معاوية خطبني، فقال لها: أتتزوجين ابن آكلة الأكباد، فلو جعلتِ ذلك إليَّ، فقالت: نعم، قال: قد تزوجتكِ، قال ابن أبي ذئب: فجاز نكاحه).

وعادت أُمَامَة ﷺ تمارس حياتها نَائِيَة[٣] عن ناظري التاريخ من خلال لونها الهادئ والأثير لديها الذي تُكَدِّرَهُ[٤] قوانين الحياة وطبائع البشر بلا ريب، ومن حين لآخر تعيش في زمن غير الزمن مسترجعة تلكم الفَوَادِحَ التي ألمَّتْ بها متتابعة عن قرب، مستشرفة ذلك الهدوء الذي لا يُكَدَّر الذي ينتظمه جمال أَبَدِّيٌ مطلق لا يوصف، ولا يَرْقَى إليه خيال، وينتظم معه الأهل

لأن الرُكْن تعني: العزَّ والمنعة.

(١) صوت ينتج عن صوت مرتفع سواء كان ذلك بالبكاء أو الغناء.

(٢) قال الدَّارَقُطْنِيّ في كتاب الإخوة: تزوجها بعد عليّ، المُغيرة بن نوفل، وقيل: بل تزوجها بعده أبو الهياج بن أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب.

(٣) بعيدة.

(٤) تُعكِّرَهُ.

والأحباب الأم والأب والخالات والأخ والجد النبي ﷺ، وتمرُّ الأيام ولا يتوقف مرور طموحها إلى هذا الهدوء في نفسها الطيبة، وفي أيام معاوية بن أبي سفيان، وهي عند المُغيرة بن نوفل رضي الله عنهم جميعاً، رقت أُمَامَة الطيبة إلى هناك[1].

(١)) نسب قريش للمصعب الزبيري (١٥٨)، طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦)، أنساب الأشراف (١/ ٤٠٠)، تاريخ الإسلام (١/ ٢٤)، الاستيعاب (٣٢٨١)، الإصابة (١٠٨٢٨)، أسد الغابة (٦٧٢٤).

أم سعد بنت سعد بن الربيع.. التي تُدِين المسلمة شكراً

لئن نلتَ إرثك من والديك أو أحدهما، وأنلتَ أختكَ إرثها بنفس راضية، وضمير قرير فقد تسرَّبَ ضوء الإسلام الباكر من قلب الأمين ﷺ إلى قلبك..

أمَّـا هذا الذي آثر نفسه بالإرثِ كلِه، وكانت أخته يقينة أنها لا تُسام في رحابه خسفًـا، ولا ضيمًا[1]، له أن يعلم أن فعلته كانت تقليدًا من تقاليد الجاهلية جبَّه[2] العدل الإسلامي لمَّا غمر الأرض ونفوس البشر، وأنه أحد اثنين:

- إمَّـا جاهليّ!

- وإمَّـا مسلم فشت المعصية في نفسه، فردَّ على الله عز وجل شرعه، وأرجع على الرسول ﷺ حكمه.

وأنتِ، أيتها الأخت المباركة، إذا استلمتِ عقد إرثكِ بيمينكِ، واستقبلتيهِ بوجهكِ راضية مرضيَّة، فاعلمي أن من بين الذين يدينونكِ شكرًا وعرفانًـا فتاتين.

فهلمِّي نتعرف على وقائع الحدث الذي انتظم ميثاقًا إلهيًا يضمن لكِ إرثكِ، وإليكِ الحدث بشخوصِه.

فتاتان ضنَّ علينا التاريخ بذكر اسميهما، حتى اسم أبيهما اخْتُلِفَ فيه،

(١) لا تذوق منه ذلًا أو ظلمًا.
(٢) قطعه ومحاه.

وأرجحت المصادر أنهما بنتا الصحابي الجليل سعد بن الربيع ﷺ، وإن أحدهما هي أم سعد بنت سعد بن الربيع، ولكنها أجمعت على أن الصحابية الحكيمة أم كُجَّة الأنصارية كانت أحد أطراف الحديث، وإليكم الحدث بشخوصه.

عن جابر بن عبدالله ﷺ قال: جاءت أم كُجَّة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن لي ابنتين قد مات أبوهما، وليس لهما شيء[١]، فأنزل الله عز وجل: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النِّسَاء: ٧]، ثم أنزل عز وجل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النِّسَاء: ١١].

وفي رواية أخرى أيضاً عن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع[٢] بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتِل أبوهما معك يوم «أُحد» شهيدًا، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالًا إلا أخذه، ولا تُنكحان إلَّا ولهما مال، فقال ﷺ: «يقضي الله في ذلك»، فنزلت آية المواريث؛ يعني: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ

(١) قال أبو موسى: أي ليس يُعطيان شيئًا من ميراث أبيهما.

(٢) ذكرت رواية أخرى أنها امرأة ثابت بن قيس ﷺ، وقال ابن حجر: هذا خطأ، وإنما هما ابنتا سعد بن الربيع، أمَّا قيس بن ثابت فاستشهد في اليمامة رضي الله عنهم جميعًا.

ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [النِّسَاء: ١١-١٢] .

فبعث رسول الله ﷺ إلى عمِّهما، فقال: «أعطِ ابنتي سعد الثُّلثينِ، وأمَّهما الثُّمن، وما بقي فهو لك»(١).

ألم أقل للأخت المباركة: إذا استلمتِ عقد إرثكِ، فاعلمي أن من بين الذين يدينونك شكراً وعرفاناً فتاتين هما ابنتا سعد بن الربيع رضي الله عنه(٢)، ذلكم الصحابي الذي كان له في يوم «أُحد» خبر، أشرق في بطون الكتب كما لم يشرق خبر آخر، خبر تُطلق روعته خواطرنا، ويفيضها شجنه، لذا أستميح الجميع عذراً في التعرف عليه سريعاً كما أوردته الآثار الأمينة.

فعن يحيى بن سعيد، قال: لمَّا كان يوم «أُحد»، قال رسول الله ﷺ يومئذ:

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي في صحيحه (٢٠٩٢) واللفظ له، وابن ماجه (٢٧٢٠)، وأحمد (١٤٨٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (٢٢٠٠).

(٢) راجع قصته كاملة في «رجال تحت راية النبي» للمؤلف، دار التوفيقية للتراث بالقاهرة.

«من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟»، فقال رجل: أنا يا رسول الله، فذهب يطوف في القتلى، فقال له سعد: ما شأنك؟ قال: بعثني رسول الله لآتيه بخبرك، فقال سعد: فاذهب إليه فأقرئه مني السلام، وأخبره أني طُعنت اثنتي عشرة طعنة، وأني قد أنفذت مقاتلي، وأخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قُتل رسول الله وأحد منهم حي[١].

وقال ابن الأثير: قيل: إن الرجل الذي ذهب إليه هو أُبَيّ بن كعب، قاله أبو سعيد الخدريّ، وقال له: قل لقومك: يقول لكم سعد بن الربيع: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة، فوالله ما لكم عند الله عذر إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف، قال أُبيّ بن كعب: فلم أبرح حتى مات، فرجعت إلى رسول الله فأخبرته، فقال: «رحمه الله، نصح لله ولرسوله حيًا وميتًا»[٢].

ودفن سعد بن الربيع هو وخارجة بن أبي زهير في قبر واحد رضي الله عنهما.

وقد أفصح الحافظ بن حجر عن اسم إحدى ابنتي سعد بن الربيع في خبر يفيض بمزيج من رُوَاء[٣] التواضع، وروعة إنزال الناس منازلهم، جاء فيه: عن أم سعد بنت سعد بن الربيع أنها دخلت على خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه، فدخل عمر رضي الله عنه، فقال: يا خليفة رسول الله، من هذه؟! فقال أبو بكر: هذه ابنة من هو خير مني ومنك!

فقال عمر: ومن خير مني ومنك إلا رسول الله ﷺ؟!

---

(١) حديث مرسل: أخرجه ابن سعد (٣/ ٢/ ٧٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٢٤)، ومالك (٩٩٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (١/ ٣١٨)، أسد الغابة (١٩٩٣).

(٣) جمال وبهاء.

قال أبو بكر: رجل قُبِضَ على عهد رسول الله ﷺ، تبوأ مقعده من الجنة وبقيت أنا وأنت[١].

وروى إسماعيل القاضي في «أحكام القرآن» أن عمرة بنت حزم كانت تحت سعد بن الربيع فقُتِل عنها بـ«أُحد»، وكان له منها ابنة فأتت النبي ﷺ تطلب ميراث ابنتها، ففيها نزلت: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٧].

ومن مشهور الأخبار أن سعداً بن الربيع كان له زوجتان، فعن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، أنه قال: لمَّا قَدِمنا المدينة آخى النبي ﷺ بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إنِّي أكثر الأنصار مالًا، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زَوْجَتيَّ نزلت لك عنها، فإذا حلَّت[٢] تزوجتها! فقال له عبدالرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق تجارة[٣]؟

وهكذا نستطيع أن نقرر بأن سعد بن الربيع كان له زوجتان، الأول عمرة بن حزم أو حرام[٤]، وربما كانت تُكنَّى بأم كُجَّة، ويجوز أن تكون زوجة سعد الثانية هي أم كُجَّة وكان لها اسم آخر، وترى هل كان لسعد بن الربيع ابنتان من أم كُجَّة، وابنة من عمرة، أم أن الخبرين ملتبسان؟ الله أعلم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٥٤٠١).

(٢) نزلت لك عنها: أي طلقتها، وحلَّت: أي انقضت عدتها.

(٣) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٢٠٤٨) في كتاب البيوع.

(٤) كما ذكرها ابن الأثير في أسد الغابة كزوجة لسعد بن الربيع (٧١٢٤).

ذلك لأنه اخْتُلِف في اسم زوج أم كُجَّة التي نزلت فيها آية المواريث، قال ابن الأثير: أم كُجَّة زوجة أوس بن ثابت، وقال: قال ابن عباس: إن أوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك ثلاث بنات وامرأة، يقال لها: أم كُجَّة، فقام رجلان من بني عمه فأخذا ماله، ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئًا، فجاءت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، فنزلت هذه الآية.

ولا ضير، ولا ضرورة للتوقف عند الأسماء التي لا يقين من صحتها، ونتعداها إلى ما خلفها من أحداث، بل نتعدى الأحداث إلى ما خلفها من دروس مستلهمة.

وما يعنينا هنا، ونَخْلُص إليه مطمئنين أن آية المواريث بما انتظمته من دفع للظلم عن النساء، وحفظ لحقوقهن نزلت في أم سعد ابنة سعد بن الربيع وأختها، وبتحرك مخلص وأمين من الصحابية الجليلة أم كجَّة الأنصارية، وربما نزلت في ابنتي صحابي آخر وحجب عمومتهما عنهما إرث أبيهما.

تلكم المظلمة التي ما زالت قائمة، ومسموعة الأنين حتى أيامنا، ولكن يكفينا أن نكرر ما أسلفناه لكل من حجب ميراثًا أنه أحد اثنين: إمَّا جاهليّ، وإمَّا مسلمٌ فشت المعصية في نفسه، فردَّ على الله عز وجل شرعه، وأرجع على الرسول ﷺ حكمه، وهو وحده الذي يستطيع أن يقرر أين يقف؟

والآن علينا أن نترضى عنهم جميعًا، فلولا هذا التشريع المهم جدًا لكانت أمور وفتن، نعلم يقينًا أن الله عز وجل لم يكن ليترك خلقه دون هذا التشريع الضروري الذي يُنَظّم لهم مواريثهم، ولكن حسب هؤلاء الأجلاء فخرًا أنهم

كانوا أسبابًا في تنزله، وحسبهم خلودًا، وتميزًا، وتفردًا أن يُذْكَروا كلما ذُكِرْ[١].



(١) البداية والنهاية (٣/ ٣١٩)، الثقات (٣/ ١٤٧)، الطبقات الكبرى (٩/ ٧٩)، الاستبصار (٥٦، ١١٤)، صفة الصفوة (١/ ٤٨٠)، الإصابة (٣١٦٠)، سير أعلام النبلاء (٦٨)، أسد الغابة (١٩٩٣) (٧٥٧٦).

زينب بنت معاوية.. لها أجران: الصدقة والقرابة

الفقر، هذا الثقيل الوطأة، له في البيوت ضجة وصخب، ولا يُرْجى منه قط سكينة وهدوء إلَّا إذا غالبه الدِّين في الدور والنفوس، وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فقيراً فلم يكن صاحب مال في المدينة، ولا من قبلها في مكة، ولنقف معه قليلاً قبل الوقوف مع سيدة اللقاء، ولسوف ندرك أهمية هذه الوقفة خلال وقفتنا مع السيدة.

لم يكن عبدالله بن مسعود من قريش، حيث كان رضي الله عنه من هذيل من أرض نجد، وكانت جدته لأمه هند بنت عبد الحارث بن زهرة قد تزوجت في هذيل، ونشأت أمه أم عبد في هذيل وتزوجت بها، فكان ابن مسعود هذليّاً من قِبَل آبائه، قرشيّاً من قِبَل أمه، وعندما بلغ في مدارج حياته أول الشباب مات أبوه، فضاقت به سُبل العيش في أرض نجد، فانحدر إلى مكة ليأوي إلى أخواله من بني زهرة.

ولمّا كان الشباب في مكة لا يألفون البطالة، راح ابن مسعود يلتمس عملاً، وكان شاباً وادعاً، وما لبث أن وجد عملاً يتوافق مع طبيعته الوادعة وهو رعي غنيمات لعبقة بن أبي معيط، وطفق على حاله حتى لقي النبي ﷺ فأسلم ليومه.

وتحدث رضي الله عنه عن هذا اليوم الأغر، فقال: كنت أرعى غنماً لعُقبة بن أبي

معيط، فمرَّ بي النَّبيُّ ﷺ وأنا غلام، فقال لي: «يا غلامُ، هل من لبن؟»، قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «فهل من شاةٍ لم يَنْزُ[١] عليه الفحل؟»، قال: فأتيته، فمسح ﷺ ضرعها، فنزل اللبن، فحلبه في إناء فشرب، وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: «انقلِصي» فانقلَصَتْ، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، فمسح رأسي، وقال: «يرحمك الله، إنَّك غلامٌ مُعلَّمٌ»[٢].

وهنا يفرض السياق علينا وقفة قصيرة مع ربة[٣] الترجمة زينب بنت معاوية رضي الله عنها لنقول: كان للعبارة النبوية الشريفة «إنك غلامٌ مُعلَّمٌ» وقع خاص لا نحتاج معه إلى تدقيق لاستنتاج أن ابن مسعود كان لا يزال غلاماً[٤] بعد البعثة الشريفة، وباستشفاف تاريخي واضح نستطيع أن نقرر أن زينب بنت معاوية، زوجة عبدالله بن مسعود، كانت تتوافق معه في السن، وهكذا فقد كانت ما زالت تدرج في طور الفتيات وقتها.

وعود عاجل لابن مسعود لنقول: يومذاك تعلق قلب ابن مسعود بالنبي ﷺ أشد التعلق حتى استشعر اِسْتِعْصَاء المضي في الحياة دون ملازمته ﷺ، فترك رعي الغنم ليُسلِم ويلازمه كظله، ولأنه رضي الله عنه ترك الرعي ليلازم النبي ﷺ، فقد أنعم الله عليه وعلى أمه بشرف الدخول عليه وملازمته، حتى قال أبو

(١) يثب عليها، فمن المعلوم أن الشاة لا تدر اللبن إلَّا بعد أن تحمل وتلد، ولكنها آية من آيات النبوة للنبي ﷺ.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٠٦١)، وأحمد (١/ ٣٧٩) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح السيرة.

(٣) صاحبة الترجمة.

(٤) الغلامُ: يُطلق على الطفل الذكر منذ لحظة ولادته إلى أن يشب وينبت شاربه، وجمعها: أغْلِمَةٌ، وغِلْمَةٌ، وغِلْمَانٌ.

موسى الأشعري رضي الله عنه: قدمت أنا وأخي من اليمن، فكنَّا حيناً[١] وما نرى ابن مسعود وأمه إلَّا من آل بيت رسول الله ﷺ من كثرة دخولهم عليه، ولزومهم له[٢].

لذا، علت منزلة ابن مسعود، وارتفع قدره، حتى قال عن نفسه: «لقد قرأت على رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، ولقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أني أعلمهم بكتاب الله، ولو أعلم أحداً أعلم مني لرحلت إليه..»[٣].

قال رضي الله عنه ذلك في غير تزكية لنفسه، ولكن بغرض تحصيل منفعة للناس، وترغيبهم في أخذ العلم عنه، ولمَ لا وقد قال ﷺ: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد -فبدأ به- ومعاذ بن جبل، وأُبيّ بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة»[٤]؟ وقال ﷺ أيضاً: «من سرَّهُ أن يقرأ القرآن غضاً كما نزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»[٥].

هكذا جعل عبدالله بن مسعود جهده وهمَّه في ملازمة النبي ﷺ، وتحصيل العلم عنه، وكان زاهداً في دنياه أشد الزهد حتى قال تميم بن حرام: جالست أصحاب رسول الله ﷺ، فما رأيت أحداً أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أحب إليَّ أن أكون في صلاحه من عبدالله بن مسعود.

عمداً طالت وقفتنا مع ابن مسعود ليجد أحدنا الإجابة في نفسه إذا دفعته

---

(١) مكثنا زماناً.
(٢) خبر صحيح: أخرجه البخاري (٣٧٦٣)، ومسلم (٢٤٦٠)، والترمذي (٣٨٠٨).
(٣) خبر صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).
(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٨٠٨)، ومسلم (٢٤٦٤)، والترمذي (٣٨١٠).
(٥) حديث صحيح: صححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦١).

الأحداث القادمة إلى التساؤل: لماذا كان عبدالله بن مسعود يأكل من مال زوجته؟!

لئن كان النبي ﷺ يأكل من مال السيدة خديجة بنت خويلد لتفرغه لشؤون الدعوة، وأعباء الرسالة، فإن عبدالله بن مسعود كان يأكل من مال زوجته السيدة زينب بنت معاوية لتفرغه لملازمة النبي ﷺ، وأخذ العلم عنه.

وليس من بد من القول: إن نفقة الرجل على زوجه هي الأصل، ولكن صروف الحياة لا تُوفِّر هذا الأصل لكل راغب، فمتى استطاع الرجل أن ينفق على أهله كان عليه أن يفعل، فإذا لم يتوفَّر له، وكان في ضائقة مادية لسبب أو لآخر فلا حرج عليه أن يأكل من مال زوجته طالما كانت تمتلك الكسب الطيب، وطابت نفساً بذلك.

كان ابن مسعود يعمل في شبابه قبل الإسلام، ولا ريب أنه لم يكن شيء أحبّ إليه بعد الإسلام من إعالة أهله، وأن يكون لهم بمثابة الدرع السابغة التي تكفل لهم النفقة والأمان، لكن من أين له بالمال؟ وأنَّى له بالعمل الذي يحقق له ذلك الهدف المرموق ولا يتعارض مع ملازمته للنبي ﷺ وأخذه العلم عنه؟ وكانت زينب بنت معاوية الثقفية رضي الله عنها امرأة صَنَاعاً[1]، وليس لعبدالله بن مسعود مال، فكانت تنفق عليه وعلى ولده من ثمن صناعتها[2].

أرادتها صروف الحياة على النفقة عليهم، فكانت تَبِرُّ بهم، وتُحسِن إليهم، وتجابه بعملها مناكدة الفقر وعنته، ولزمت ذلك أياماً متوالية وهي بالكاد تسدّ

(١) تمارس إحدى الصناعات التي تدر عليها رزقاً حلالاً.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٦٣).

الفاقة، وتناهض مطالب الدار التي تبتلع ما تكتسبه، وكانت مظاهر الأُلْفة تكثُرُ في الدار وأنف الفقر راغم، يدفعهم إلى الصبر والمصابرة جو أفعمته مظاهر العبادة بالجلال والوقار، ولهم حلم لا يكفّ عن الخفقان في أفئدتهم، ولا يكفّون هم عن اللهاث خلفه، ألا إن حلمهم الجنة.

وكانت السيدة زينب بنت معاوية تسعى في حياتها سعيها الدؤوب وهي تُصْغي إلى كلام الله عز وجل، وأحاديث النبي ﷺ، وتُقبل على أوامرهما في سكينة، وتتجنب نواهيهما في هدوء، وذات يوم كانت بالمسجد ونما إلى مسامعها صوت النبي ﷺ: «تصدَّقن يا معشر النساء ولو من حُليكنَّ»[1].

فاضطربت وبُعِثت في جسدها قشعريرة دونها قشعريرة الفزع، إن النبي ﷺ يَحُثُّ النساء على الصدقة حثاً أكيداً، آلمتها العبارة الشريفة، وروعها معناها، وتجاذبتها الأفكار؛ إنها تجتهد في عملها لتجابه مناكدة الفقر وعنته، وبالكاد تسدُّ الفاقة، وتناهض مطالب الدار، أجل هي تبرُّ زوجها وأولادها وتُحسِن إليهم، ولها عندهم مآثر، ولكن ذلك كله لا يبلغ عندها مبلغ التفريط في أمر من أمور الدين ذلك الخير الذي لا يُعَوَّض بغيره، وما نحسبها إلَّا وجعلت تشرع بأذنيها مدققة للعبارة الربانية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٧] تتردد في أجواز الفضاء من فوقها وحولها، وتتعقبها العبارة النبوية الشريفة: «تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن».

هي إذاً تفعل ما تفعله أولاً ابتغاء مرضاة الله، ليس لحبِّ زوجٍ، أو مرضاة

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٤٤٧)، ومسلم (١٠٠٠).

ولد، وما نحسب عبدالله بن مسعود الذي يلزم النبي ﷺ ويسمع منه إلَّا وهمَّ أن يُحدِّث زوجته التي يفيض قلبها بالخير في هذا الأمر، ويبين لها أن نفقتها عليهم وبرَّها بهم لا ينقص من أجرها عن أجر المتصدِّقين شيئاً، وإنما يربو بأجرها عليهم، ولكنه ألفاها تسبقه إليه، قائلة في لهجة طابعها التحفظ والأدب: شغلتني أنت وولدك عن الصدقة.

ربما شق على ابن مسعود ما سمع، ولكنه قال وعلى صفحة عينيه يَلْتَمع مزيج من ضوءي الشكر والشفقة: ما أحبُّ أن تفعلي إن لم يكن لك أجر.

ولم تجلس المرأة الطيبة تغمغم ولا تُبين[1]، وإنَّما تمنَّت على ابن مسعود أن يسأل لها النبي ﷺ في الأمر، وكيما تطيب نفساً، وتسكن فؤاداً، طلب منها ابن مسعود أن تسأل بنفسها، فبنت عزمها على الذهاب إلى النبي ﷺ سائلة مستفتية، ما رأيكم في أن نسمع منها؟

قالت رضي الله عنها: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ»، وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِاللَّهِ وَأَيْتَامٍ فِي حَجْرِهَا، فَقَالَتْ لِعَبْدِاللَّهِ: سَلْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجْرِي مِنْ الصَّدَقَةِ؟ فَقَالَ: سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى ﷺ فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي، فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٌ فَقُلْنَا: سَلْ النَّبِيَّ ﷺ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي؟ وَقُلْنَا لَا تُخْبِرْ بِنَا، فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ هُمَا؟» قَالَ: زَيْنَبُ، قَالَ: «أَيُّ الزَّيَانِبِ؟»، قَالَ:

(١) لا تتحدث ضائقة بعبارات مبهمة وغير مفهومة تعبر فقط عن الضيق والضجر.

امْرَأَةُ عَبْدِاللَّه، قَالَ ﷺ: «نَعَمْ ولَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»[١][٢].

وما نَحْسَبُهُ أن السيدة قد عادت من عند النبي ﷺ، ونفسها تُدَوِّي بالتهلل، وعلى مُحيَّاها يتلألأ الاستبشار، وتمرُّ الأيام وهي تسمع من زوجها الأحاديث الشريفة وتروي عنه[٣]، وربما سمعت منه يوماً قوله الشريف: «على كل مسلم صدقة»، فقالوا: يا نبي الله، من لم يجد؟ قال ﷺ: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدَّق»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال ﷺ: «يُعين ذا الحاجة والملهوف»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال ﷺ: «فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشرِّ فإنها صدقة»[٤].

وما نفهمه، أن السيدة طفقت تدأب في صنعتها وتبيع وتنفق على زوجها وولده، وقد توارى من نفسها تماماً معنى أنهم يشغلونها عن الصدقة، وتتردد فيها ترديداً متصلاً بالعبارة النبوية الرائعة: «لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»، فما كانت ﷺ تطمع أو تطمح في أكثر من أجر، فكيف بها وهي تنفق على أحبابها ولها أجران؟! فيشعرها ذلك بالرضا، ويغريها بالمزيد[٥].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠) باختلاف يسير.

(٢) ورد هذا الحديث في ترجمة زينب بنت معاوية الثقفية امرأة عبدالله بن مسعود، وورد أيضًا في ترجمة رائطة أو ريطة بنت عبدالله امرأة عبد الله بن مسعود، أنها قالت للنبي ﷺ: إنِّي امرأة ذات صنعة فأبيع، وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي شيء ويشغلونني عن الصدقة فلا أتصدق، فهل لي في النفقة عليهم أجر؟ فقال ﷺ: «لكِ في ذلك أجر ما أنفقتِ عليهم، فأنفقي عليهم» (أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده (٣/ ٥٠٣)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٢٦٣)).

(٣) ورد عن زينب بنت معاوية، ورائطة بنت عبدالله أن كلاً منهما روت عن النبي ﷺ (راجع التراجم الخاصة بهما التي سنشير إليها في الهامش الأخير).

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٤٤٥).

(٥) راجع: طبقات ابن سعد (٨/ ٢٩٠)، الاستيعاب ٣٣٩٩)، الثقات (٣/ ١٣٣) (٣/ ١٤٥)، أعلام النساء (١/ ٤١٢) (٢/ ١١٥)، الإصابة (٤٩٧٠) (١١٢١٠) (١١٢٥٧)، أسد الغابة (٦٩١١) (٦٩٤٣) (٦٩٧٥).

أُمَامَةُ بنت حمزة.. ابنة «سيد الشهداء»

في بطون الكتب نَدَرَتْ أخبار الفتاة، إنها على الصحيح لم تتَعدَّ خبرًا أو خبرين، ورغم هذه النَّدْرَة فإننا نُؤْثِرُهَا وتُؤَثِّر هي فينا، فكفانا لهذا التَّفضل منَّا وهذا التَأثير فينا أنَّها ابنة أسد الله حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، عم النبي ﷺ، وأخيه من الرضاعة، صديق طفولته وصاحب عُمْرهُ المُتْرَع بالأحداث الجسام[١]، إنها أُمَامَةُ بنت حمزة بن عبدالمُطَّلِب القرشية الهاشمية.

ولعل هذا الموقف المشهود والمأْثور[٢]، الذي يُشْعرنا بتأثُّرِنا الدائم بسيرتها رغم ندرة أخبارها هو أهم وأصح ما ورد عنها، ولنتأمله بين أحداث عمرة القضاء[٣].

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هلَّ ذو القعدة، أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألَّا يتخلف منهم أحد شهد «الحديبية»، فخرجوا

---

(١) المُتْرَعُ: المَلِيء، والأحداث الجِسام: الأحداث العظيمة والجسيمة.

(٢) المرْويُّ والمشهور.

(٣) عمرة القضاء: هي العمرة التي أداها النبي ﷺ وألفان من أصحابه سوى النساء والصبيان، في ذي القعدة ٧هـ عوضًا عن العمرة التي صُرِفوا عنها وفقاً لشروط صلح «الحديبية» في ذي القعدة ٦هـ، وكانت أول عمرة قام بها النبي ﷺ والمسلمون بعد الهجرة إلى المدينة، واستغرقت أحداثها ٣ أيام تركت فيها قريش مكة للنبي ﷺ وأصحابه، وسُمِّيت بعمرة القضاء؛ إمَّا لأنها كانت قضاء عن عمرة الحديبية، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة -أي المصالحة- التي وقعت في الحديبية (زاد المعاد ١/ ١٧٢).

وتُسمَّى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والقصاص، والصلح (فتح الباري ٧/ ٥٠٠٠).

إلَّا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان[١]، ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثَنِيَّةِ[٢] التي تُطْلِعُهُ على الحجون[٣] راكبًا ناقته القصواء.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثاً، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًا[٤] فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ ونزل بسرف[٥]، فأقام بها، ولما أراد ﷺ الخروج تبعتهم أُمَامة بنت حمزة بن عبدالمطلب[٦] تنادي: يا عم، يا عم[٧].

كان حمزة بن عبدالمطلب قد تزوج سلمى بنت عميس وهي إحدى الأخوات التي قال فيهن النبي ﷺ: «الأخوات المؤمنات»[٨]؛ يقصد ﷺ

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٠٠٠).

(٢) تعني الطريق في الجبل.

(٣) جبل في مكة المكرمة، على سفحه تقع مقبرة المُعَلَّاة (أي أعلى مكة)، وهي مقبرة عامة لأهل مكة المكرمة، من قبل الإسلام وحتى الوقت الحاضر، وتقع في بداية طريق الحجون على يمين المتوجه إلى الحرم المكي، مدفون بها شخصيات وأعلام من الصحابة، أشهرهم السيدة خديجة بنت خويلد ﵂، وبعض التابعين والعلماء والخلفاء.

(٤) يعني أهل مكة.

(٥) موضع يقع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة على بُعد ١٢ كيلومتراً منها، وتُعرف حالياً باسم النورانية.

(٦) أشار ابن الأثير في أسد الغابة ترجمة (٧١١٩) أن الواقدي ذكرها باسم عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب، وفي نفس الترجمة ذكر ابن الأثير أن الخطيب البغدادي قال: انفرد الواقدي بتسمية عمارة في هذا الحديث وسماها غيره أُمامة، وذكر غير واحد من العلماء أن حمزة كان له ابن ذكر اسمه عمارة، وهو الصواب.

(٧) صحيح البخاري (٢٦٩٩)، ومسلم (١٧٨٣).

(٨) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٨٣٨٧)، والطبراني (٣٦٠) واللفظ له، والشوكاني في در السحابة (٤٧٥) وقال: رجاله رجال الصحيح.

زوجته ميمونة بنت الحارث الهلالية، وأم الفضل امرأة العباس، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر، وسلمى بنت عميس امرأة حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنهم.

وولدت سلمى لحمزة أُمَامَة بنت حمزة، وقيل: أمة الله بنت حمزة، ثم بانت منه فتزوجها شداد بن الهاد الليثي، وقيل: بل تزوجها شدَّاد بعد استشهاد حمزة في «أُحد»، قال عبدالله بن شداد: كانت بنت حمزة أختي من أمي، وكانت أُمّنا سلمى بنت عميس.

بيد أن أُمَامة كانت تعيش مع أمها سلمى بنت عميس بمكة في حجر شدَّاد بن الهاد، ولم تكن أُمَامَة بنت حمزة في طور الطفولة، ولكنها كانت تصعد على أعتاب طور الفتيات، ما نريد أن نَخْلُص إليه أنها كانت في سنٍ يسمح لها بتكوين الرأي واتخاذ القرار، ونحدس بأنها تجاذبت أطراف الرأي مع أمها سلمى بنت عميس حتى تركتها على قناعة برحيلها مع ابن عمها النبي ﷺ إلى المدينة، حيث لم يُشر أي خبر إلى أن أمها أو زوج أمها حاولا ثنيها عن أمر الرحيل هذا، هذا ما نعتقده، ونفهمه.

المهمُّ أن أُمامَة تَنسَّمت في أبناء عمومتها النبي ﷺ، وعليّ بن أبي طالب، وأخيه جعفر، شذا أبيها، لكأنها تعاني هموماً شديدة الوقع ثقيلة الوطأة لِبُعْدها عن أعمامها، وأبناء عمومتها، فتعلق فؤادها بهم، وثبتت بصرها عليهم، وتبعتهم تنادي: يا عم، يا عم.

وسمعها عليّ بن أبي طالب وهزَّ نداؤها نفسه، لكأنَّه اكتشف حقيقة غائبة وضعته في حالة ذهنية وعاطفية معينة، وجعلته يهرول نحوها يأخذ بيديها في حنو ويقول لزوجته الزهراء في تأثر: «دونكِ ابنة عمك احمليها».

ولئن كانت أُمامة في طور الطفولة، فإن علياً ﷺ يقصد أن تحملها فاطمة كما يُحمل الأطفال، ولكنها كانت في طور الفتيات، وهو الأرجح، وعليٌّ يقصد أن تحملها معها على دابتها، ثم توجَّه عليّ صوب النبي ﷺ وما زال على حال تأثره: يا رسول الله، عَلَامَ نترك بنت عمنا بين ظهراني المشركين؟!

فأقره ﷺ على إخراجها، بيد أن ما صار في ذهن عليّ وعاطفته، ثار نظيره في نفس أخيه جعفر، وكذلك نفس زيد بن حارثة، فتلاحقوا بالنبي ﷺ واحداً في إثر الآخر مختلفين في أُمامة وملء نفس كل منهم من الأمل ما يجعله يروم أن يحكم له النبي ﷺ بضمِّ أُمامة إليه، وأسرع كل منهم يُبْدي من حيثياته ما يؤهله لضمها إليه.

يقول البراء بن عازب: فقال عليٌّ: أنا أحق بها، وهي ابنه عمي أخرجتها من بين ظهراني المشركين، وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي (وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين حمزة بن عبدالمطلب حين آخى بين المهاجرين)، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعليّ: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقِي وخُلُقِي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[1].

دار ﷺ بذهنه الشريف سريعاً مع القضية، وبقلب مُلْهَم، وعقل فاقه[2] حكم فيها حكماً ارتاح له الجميع، حكم بأُمَامَة لجعفر بن أبي طالب من خلال زوجته أسماء بنت عميس، كان الحكم مقبولاً شكلاً وموضوعاً، وارتاح له

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٩)، ومسلم (١٧٨٣).
(٢) فاهم.

عليّ، وزيد، تماماً مثلما ارتاح له جعفر رضي الله عنهم.

ومما يقيم الدليل البيِّن على أن أُمامة كانت في طور الفتيات، وربما سلخت منه فترة ليست بالقصيرة، الحديث الذي رواه عليّ بن أبي طالب، بعد أن حكم ﷺ بأُمامة لجعفر بن أبي طالب، قال عليّ للنبي ﷺ: يا رسول الله، ألا تتَزوَّجُ ابنة حمزة، فقال ﷺ: «إنها ابنة أخي من الرَّضاعة»[١].

وإلى رحاب المدينة الطيبة انتقلت أُمَامة بهمِّها وهدفها، ولكأنهما يمنحانها القوة حيث طفقت تجدُّ في السؤال عن قبر أبيها، أَتْرَاهَا تحاول إصلاح وترميم انكسار قلبها وَشَرْخِه؟ كَمَنْ بقيت في الظلام وتريد الآن أن تتخذ من مجرد معرفة قبر أبيها نوراً تدور حياتها في فلكه، وفي تحرِّيها له والوقوف أمامه، ستنفض كل هذه الأثقال عن قلبها وكاهلها، فبلغ ذلك حسان بن ثابت رضي الله عنه فقال:

تُسَائِلُ عن قَرْمٍ هِجَانٍ سَمَيْدَعٍ ... لدى البأسِ مِغْوارِ الصَّباحِ جَسُور[٢]

فقلتُ لها: إن الشَّهادة راحةٌ ... وَرِضْوَانُ رَبٍّ يا أُمَامُ غفور

دَعَاهُ إِلَهُ الخَلْقِ ذو العَرْشِ دَعْوةً ... إلى جنَّةٍ فيها رِضًا وسرور

ثم زوجها رسول الله ﷺ من سلمة بن أم سلمة؛ ليبتسم وجهها بعد حزن طال وشحوب امتد، وقال ﷺ حينها: «هل جَزَيْتُ سلمة؟»[٣]، وسواء صحَّ

(١) أخرجه أحمد شاكر في المسند (٢/ ١٨٤)، وقال: إسناده صحيح.

(٢) القَرْمُ: السيد، والهِجَانُ: الأبيض، والسَمَيْدَعُ: الكريم الجميل، وقيل: الشجاع.

(٣) ذكره ابن كثير البداية والنهاية (٦/ ٣٩٣)، وأخرجه البيهقي في سننه (٧/ ١٢٢)، وابن سعد في الطبقات (٨/ ١١٤) بإسناد ضعيف.

الحديث أو حَسُنَ أو حتى ضّعُفَ فالأمر سواء أمام كرم النبي ﷺ ودأبه في رَدِّ الجميل.

قلنا في الدراسة السريعة والخاصة بسلمة، وعمر، ابني أبي سلمة: أشرف اسم سلمة من الأحداث غير مرة، غير أنه توارى عن نظر التاريخ عامة سيرته ولم يبرز له إلا نادراً، فذكره حين زوَّجَ النبي ﷺ من أمه أم سلمة، وذكره حين زوَّجه النبي ﷺ من أُمَامَة بنت حمزة.

وجمع ابن إسحاق الخبرين في حديث واحد، فقال: حدثني من لا أتهم عن عبدالله بن شدَّاد، قال: كان الذي زوَّج أم سلمة من النبي ﷺ سلمة بن أبي سلمة ابنها، فزوَّجه النبي ﷺ من أمامة بنت حمزة وهما صبيان صغيران، فلم يجتمعا حتى ماتا، فقال ﷺ: «هل جزيت سلمة؟».

وعقَّب ابن حجر على الخبر قائلاً: وأمَّا ما وقع من أنهما لم يجتمعا حتى ماتا، فالمراد أنها ماتت قبل أن يدخل بها، ومات هو بعد ذلك، وقال ابن الكلبي: مات سلمة قبل أن يجتمع بأمامة.

ووددنا لو قلنا: اكتفت المصادر -تقريباً- بما أوردناه عن أُمَامة، ولئن لم تتبع أُمَامة ابن عمها النبي ﷺ، وراحت تبحث عن قبر أبيها لَدُفِنَت في أعماق التاريخ، وما ذَكَرَهَا ذاكر، ولا سمع بها سامع، وقد ضَنَّتْ علينا المصادر حتى بتاريخ وفاتها، غير أن الحاكم النيسابوري قال: «إن أمامة بنت حمزة عاشت بعد الرسول ﷺ وروت عنه»[1].

(١) أخرجه الحاكم النيسابوري في المستدرك (٤/ ٦٦).

وتشي روايتها عن ابن عمها بأن أحاديثه الشريفة ﷺ كانت في بؤرة اهتمامها، وليس من بد أنها سمعت بشعور مفعم بالغبطة عبارته النبوية الرائعة: «يشفع الشَّهيد في سبعين من أهل بيته»[١]، فما بالها وما بالنا وهي ابنة سيد الشهداء، وعندما أَذِنَتْ شمس عمرها القصير بالغروب، لاقت أضعافاً كثاراً مما هفت إليه وحنَّت، وتاقت إليه واشتاقت[٢].

(١) حديث صحيح: صححه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٩٣)، وصحيح أبى داود (٢٥٢٢).
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٤) (٦/ ٣٩٣)، طبقات ابن سعد (٨/ ١١٤)، أسد الغابة (٦٧٢٢) (٧١١٩)، الإصابة (١٠٨٢٢).

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
دُرَّة وزينب بنتا أبي سلمة.. ربيبتا الرسول الكريم ٧
مُعَاذَةُ بنت عبدالله.. ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء ١٦
أم كلثوم بنت عقبة.. المؤمنة المهاجرة الممتَحَنة ٢٣
أم موسى اللخْمِيَّة.. بطلة فوق ساحة «اليرموك» ٣٢
أم هشام بنت حارثة.. زهرة بني النجار ٣٧
عاتكة بنت زيد.. مَنْ أراد الشهادة فليتزوجها! ٤١
فُرَيْعَةُ بنت مالك.. العفيفة بنت العفيف ٥١
بَرِيرَة مولاة عائشة.. وبحبوحة الحرية! ٥٨
دُرَّة بنت عبد العُزَّى.. بنت عم النبي ٦٤
الرُّبَيِّعُ بنت مُعَوِّذ.. ابنة قاتل عبده ٦٩
بُهَيَّةُ بنت عبدالله.. وبركة دعاء النبي ﷺ في أولادها ٧٧
أُمَامَةُ بنت أبي العاص.. حفيدة الرسول الأكرم ٨١
أم سعد بنت سعد بن الربيع.. التي تُدِين المسلمة شكراً ٨٩
زينب بنت معاوية.. لها أجران: الصدقة والقرابة ٩٦
أُمَامَةُ بنت حمزة.. ابنة «سيد الشهداء» ١٠٣
فهرس الموضوعات ١١١



AR WWW.MUGTAMA.COM
EN WWW.EN.MUGTAMA.COM